أحمد عزت الصبَّاغ

فِيدياس

رواية

ⴼⵉⴷⵢⴰⵙ

أنا النحات "سارق مقبرة الإسكندر الأكبر"

1

المَلِك لا يقتل رُسلًا

- الإسكندر الأكبر

شتاء الإسكندرية – يناير- 2017

ها هي سراديب الإسكندرية تحت أقدامي بعالمها السحري، أكاد أشعر بندائها الخفي، نام الناس بحي المماليك القديم ولم تنَم أرواح أجدادي في تلك الليلة الغريبة، السماء غير عادية أبدًا، أصوات بروقٍ ورعودٍ تلُوح في كون الإسكندرية العجيب، حتى البحر خرج إلى الكورنيش، طوفان لذيذ يظهر في بهلوانيةٍ ذات هيبةٍ بين جلال رقصاته السريالية العجيبة.

أتمشّى بانتشاءٍ ورهبةٍ من الطريق الكانوبي -شارع فؤاد حاليًا- حيثُ إنّني على بُعد ساعة تقريبًا من أعظم موعد في التاريخ؛ لمعرفة مكان قبر الإسكندر الأكبر داخل سرداب مسجد النبي دانيال، لمقابلة "موافي" وهو الرجل الذي يمتلك خريطة الجرسون اليوناني "ستيليو كومتسوس" الذي كان يعمل في مقهى أمبريال بمحطة الرمل في الخمسينيات.

تحديدًا يوم 16 إبريل سنة 1959، وهو اليوم الذي اكتُشِف فيه عدد كبير من السراديب تحت إشراف الحكومة وقتها، إلى أن انتهى به الحال للطرد .

بعد أن أوصله مرداب سري متصل بآخر تحت الكنيسة الفرقسية لمكانٍ عميق كاد يكشف من خلاله بداية السر الأكبر.

لكنه العالم الآخر الذي يختار بعنايةٍ مَن يراه ومَن لا يحقُّ له الاقتراب، إلى أن تمّ ضبطه خِلسةً أثناء الحفر بعيدًا عن أعين الحكومة، إذ سمع أحدهم بالكنيسة أصواتًا خفيةً في الأسفل على مدار ثلاث ليالٍ متواصلة، فأبلغ الشرطة التي وجدته خارجًا مِن أحد سراديب النبي دانيال، ليتم ترحيله إلى اليونان دون أن يعثروا على المرداب الذي وجده.

وقد أقسم "ستيليو" أنّه رأى من باب المرداب الأخير الذي توصّل إليه -في السّر طبعًا- فتحةً ضيقةً فيها تابوت مِن زجاج موضوع داخله جُثمان لتمثالٍ ملفوفٍ بقطعٍ من الذهب، لكنّه لم يبلغ عن مكان هذا المرداب عقابًا للحكومة التي قرّرت طرده.

وهو ما يتفق مع كتب التاريخ أنّ "بطليموس الثاني" نقل جُثمان الإسكندر الأكبر مِن مدينة "منف" إلى الإسكندرية بعد أن بنى له قبرًا فخمًا به ممر طويل، وألحق به معبدًا.

كما أكّدت المصادر التاريخية أنّ "بطليموس الحادي العاشر" استبدل التابوت الذهبي الذي كان يضمّ جُثمان الإسكندر الأكبر بآخر من الزجاج.

لكن المدهش هو امتلاك "موافي" لتفاصيل النهاية التي وصل لها "ستيليو"، وهو ما سيقودني رغم كل التحذيرات عن حدوث أشياء

عجيبة في هذا الشارع الذي يخفي في باطنه أسرار الإسكندرية القديمة وحكايات اختفاء لا يزال بعض شهود عيانها أحياءً إلى يومنا هذا.

اخترقتُ في هذا الليل المظلم حديقة الشلالات، وكانت ساعة الورود المُلحقة به تُشير إلى الواحدة والنصف صباحًا، ما إن اقتربت من شارع "النبي دانيال" حتى دوّت صرخة عجيبة في هذا الليل لامرأة من مكانٍ ما.

دارت في ذهني على الفور حكاية اختفاء ميرفت، التي كانت تسير بجوار زوجها في نفس المكان الذي تقف عليه أقدامي سنة 1977، وفي عِز النهار أمام عمي صالح أحد باعة الكتب القُدامى الذي حكى لي:

- الحكاية كلها أنا شوفتها، "ميرفت" دي كانت بنت جميلة جدًا، لفتت نظري قبل ما المايّة البيضا تغرّق عيني، كانت ماشية مع جوزها، فجأة لقينا الأرض انشقت وبلعتها في الحال.

وأنا بنفسي شوفت جوزها وهو بيجري قدامنا زي المجنون، والناس اتلمّت، والحكومة جَت بسرعة؛ لإنها كانت مِرات الصحفي "أنور سعيد" المصور الشخصي للرئيس الراحل أنور السادات والضفادع البشرية نزلت، لقوا مراديب تحت الأرض تاهوا وخافوا، فبطّلوا يدوّروا بعد يومين كاملين.

- أيووووه يا بحر كإنّي سامع الهيصة دي دلوقت.

اللي قالك دا جِني حبها وأخدها في باطن البحر واختفى، واللي قالك المايّة جزّفتها في سرداب سري ماحدش يعرفوا، لإنه أنا فاكر إنه واحد خواجة من اللي كانوا بيدوروا على مقبرة الإسكندر، قال إنه المربع ده كله مليان سراديب، بين السراديب دي ممر غويط بيودّي بسرداب برده على البحر طوّالي، وإلا إزاي تفسّر إنها فص ملح وداب، ولّا يكونش دا ذنب الواد فيدياس؟

- مين فيدياس ده يا عم صالح؟

- أيووووه، في حد جوه اسكندرية كلها ما يعرفش حكاية فيدياس؟

- ما انت عارف، أنا بقالي تلاتين سنة في اليونان وما اعرفش غير النحّات العظيم فيدياس اللي نحت تمثال أفروديت والإله زيوس اللي من عجايب الدنيا السبعة.

- لا لا، دا حكايته ليها العجب، هو نحّات برده، خلطة ملايكة على شياطين كده، ابقى اسأل عليه الشيخ حبيب بجامع سيدي -عبد الرازق الوفائي- هو اللي لقاه في سرداب جنب الجامع، على كلّ مش دا موضوعنا دلوقت، وبلاش السيرة دي.

لم يخرجني من كلمات عم صالح سوى ترنّد الصرخات لتلك المرأة في جنبات شارع النبي دانيال، الأعجب ليس أنّه نفس المكان التي اختفت فيه "ميرفت"، بل حين التفتُّ على يساري وجدتُ جامع سيدي عبدالرازق الوفائي.

جريتُ هاربًا من هذا الصوت الذي يصرخ في صقيع الهواء حولي هاربًا منه، إلا أنّه يزداد في أذني أكثر كأنّه يُطاردني، حتى بلغت قمة شارع النبي دانيال في تقاطعه مع شارع صفية زغلول.

ذُرتُ ببصري لأجد امرأةً يحاول راكب حنطور جرّها إلى عربته محاولًا اغتصابها، وهي تصرخ في ليل الإسكندرية الذي لم أرَ مثله في حياتي:

- مَدَد يا سيدنا النبي دانيال مَدد، بقى أنا جنبك ويحصل فيّا كده؟!

عندما عقدتُ العزم للاقتراب منها وليكن ما يكون، ظهر مخلوق عجيب، بالكاد ألمحه من طفطفة أعمدة الإنارة التي غسلها المَطر بغزارة.

شابّ أربعيني يرتدي قميصًا أسود ذا طابع أنيق وعتيقفي آنٍ واحد، طُوله يقترب من المائة والثمانين سنتيمترًا، بلحية متوسطة، ملامحه فيها من هيبة الأولياء وكبرياء النّخاتين، لا أعلم من أين ظهر رغم أنّني كنتُ أشاهد الواقعة تمامًا!

سَحب كُرباج الحنطور بخفّة غير عادية، رفعه للأعلى حتى نزل به ضاربًا كمحترفٍ على ظهر المغتصب، فالتفّ حول جسدِه مُحدِثًا صوت طرقعة عالية، للدرجة التي أكاد أشعر بها في جسدي.

تبدّل صراخ السيدة لصُراخ المعتدي، ربطه المخلوق العجيب خلف عربة الحنطور، وبضربة أخرى قاد العَرَبة إلى قسم الشرطة القريب

جدًا من المكان، والرجل يزحف على طرقات الإسكندرية حتى تلوّن ماء المطر بدمه على الأرض.

تتبعته خلسةً إلى باب قسم الشرطة حتى نزلت السيدة وهذا الشبح.

بالصُدفة كان ضابط المباحث "حسام" باشا هناك، وهو الأشهر على الإطلاق بين زملائه من بين حركة التنقُّلات؛ نظرًا لكفاءته ومحبة الناس له، لدرجة أنني كنتُ أسمع عنه من اليونان وسيرته الطيبة.

مَا إن رآه حسام باشا حتى قال له بنبرةٍ فيها ترقُّب وحيرة:

- بنفسك يا فيدياس، يا ترى حكايتك إيه المرّادي؟!

أمّا أنا فما إن سمعتُ اسم "فيدياس" حتى ارتبك قلبي، ها هو صاحب قصة السرداب الذي خاف أن يحكيها لي عم صالح.

اقتربت أكثر من قسم الشرطة؛ لأسمع باقي الحوار وفك غموض هذا الرجل العجيب، فإذا به يقول في سخرية لحسام باشا:

- المحضر هتلاقيه على مكتبك باسم اللي أنقذ الست دي، ادخل اتأكّد بنفسك لو مش مصدّقني.

- بملامح تكسوها الدهشة من الضابط: المفروض برده آخد أقوالك حتى لو كلامك صحيح.

ردّ فيدياس بأريحية: أنا ماليش وجود في سجلات الحياة أصلًا يا حسام باشا وانت عارف، اللي أنقذها سِيدنا النبي دانيال شخصيًا،

ابقى اسأله، أو خُد أقواله لو تقدر، على كل حال هتتأكّد لما تدخُل مكتبك.

- يا ترى مخبّيلي إيه تاني يا فيدياس؟!

- مانا قولتلك يا حسام باشا، أنا اختارتك للتاريخ، هخليك أشهر ظابط في مصر.لاً وفي العالم كله.

- أنا عاوزك تبطّل جنان ومش عاوز حاجة تاني، وبلاش حكايات السراديب اللي بسمع عنها كل يوم دي من أول شارع فؤاد لحد النبي دانيال.

- سراديب إيه يا باشا، اللي يعرف سرداب أنا فيه يجيلي، وبعدين أنا الوحيد اللي يعرف مكان الإسكندر الأكبر فين.

- أهو ده في حد ذاته أكبر جنان، ومفيش عليه دليل بربع جنيه.

- الدليل هتلاقيه بعد سبع أيام وعِدّهملي، متنساش أنا اصطفيتك يا حسام باشا.

ما إن أدار الضابط ظهره تجاه الحنطور إذ في لمح البصر اختفى فيدياس من نظري ونظره بخفّةٍ جعلتني ألتفِتُ ورائي خوفًا منه.

في نفس الوقت قال: إنّه يعرف مكان مقبرة الإسكندر الأكبر بثقة غريبة كأنّه بطليموس الثاني نفسه.رآ

عليّ أن أتتبع حكايته من الشيخ حبيب.

نسيت أمر الموعد مع "موافي" الذي كان ينتظرني في سرداب

جامع النبي دانيال؛ لأعطيه فصوص الألماس مقابل خريطة "ستيليو" وبداية رحلتي معه إلى آخر سرداب رآه "ستيليو" من ثقب صغير فيه التابوت الزجاجي لمقبرة الإسكندر الأكبر.

فقد كان اتفاقي معه أن يرى الألماس، وألّا يأخذها إلا عندما أرى الثقب داخل السرداب، بعدها يتركني ويرحل لأواجه مصيري وحدي.

كان قد عرّفني على موافي وسيط يوناني تربطه علاقة قوية به، إذ إنّ والد موافي كان يعمل مع "كومتسومس" جرمسونًا في مَقهى "إمبريال" وسلّمها له قبل رحيله ظنًّا منه أنّ جدّه الإسكندر المقدوني لا بُدّ أن يخرج للنور من أعماق المدينة السرية تحت الإسكندرية.

اتصلت به لتأجيل الموعد للغد حتى أعرف حكاية هذا المخلوق العجيب فيدياس، وأبلغته بحدوث أمرٍ طارئ.

تَفهّم "مُوافي" موقفي مع إبقاء الأمر سرًّا بيننا، وأنّ غدًا هو الموعد النهائي، وإلّا سيلغي الاتفاق معي.

كان عليّ أن أدخل قسم الشرطة لأعرف ماذا سيكون على مكتب حسام باشا، المفاجأة التي وعده بها فيدياس رغم أنّ أقدامه لم تطأ قسم الشرطة من الأساس.

اخترعتُ حُجّة ساذجةً بأنّ بطاقتي قد فُقِدت بجوارحنطور في شارع صفية زغلول، وأريد تقديم محضرًا.

ما إن عَلِم أمين الشرطة بأمر الحضور حتى أدخلني إلى حسام باشا، الذي كان مذهولًا من ورقةٍ أمامه كأنّه قد عثر على قطعةٍ أثرية.

اقتربت أكثر مُستغلًا أنّه غارق شارد في غياهب ما فعله به ڤيدياس، لأجئه يصرخ مُناديًا بأعلى صوته: يا أمين عمـــاد.

- مين مضى شاهد على المحضر ده؟

- مفيش يا باشا، إحنا كتبناها على الكمبيوتر وحطيتها لسيادتك على المكتب، وحضرتك ممكن تراجع الكاميرات.

الضابط حسام نسي أمر الكاميرات تمامًا مِن هول ما رآه في الورقة، كما نسيَ أمري أنا الآخر وكأنّني غير موجود معه بالغرفة.

ظلّ يُراجع الكاميرات من لحظة خروجه لمقابلة ڤيدياس حتى اكتشف الدهشة الأخرى، الجزء كله من لحظة تواجد "ڤيدياس" أمام القسم إلى رحيله شاشة سوداء بها صورة تمثال الإسكندر الأكبر.

لم تتعطّل الكاميرات، فقط هذا الجزء هو ما تَبدّل، كأنّ أحدهم قد جاء من العالم الآخر وأصاب الكاميرات في هذه الدقائق بالعمى دون حذفها أو إتلافها.

وضع "حسام" باشا راحة يده على رأسه ماسكًا شعره ليشعر أنّه ما زال يفكر وأنّ عقله في جمجمته ينبض من الصداع النصفي الذي بان أنّه تمكّن من عينيه حين أغمضها، وهُنا دفست عيني على الفور

لقراءة الورقة التي سبّبت كل هذا التعب.

كانت الورقة عليها توقيع شاهد واحد فقط هو النبي "محمد دانيال" بخطٍّ يبدو لأي إنسان أنّه مكتوب بقلم قديم جدًا كأنّه مَمهور على الورقة منذُ مائة عام، حتى صاحبة المحضر لم تكُن قد وقّعت أصلًا، فأبعَدَت شَكّي فيها على الفور.

خرج بالورقة دون أن ينتبه لي مرة أخرى كأنّني تمثال واقف في مكتبه، انتهزت الفرصة لأخرج هاربًا من القسم باحثًا عن "فيدياس"، ولو كلّفني ذلك كل ثروتي التي حقّقتها في حياتي؛ لأحصل على سرداب مقبرة الإسكندر الأكبر.

*****

2

لا تتحقّل السماء شمسين، ولا تتحقّل الأرض سيدين.

- الإسكندر الأكبر

لم أنَم في هذه الليلة التي بدأ فيها وعد فيدياس لحسام باشا بالكشف عن مقبرة الإسكندر الأكبر.

شعرتُ أنّ عُمري كله لم أرَ فيه مغامرة تستحق المشي لأجلها إلّا اليوم.

حقًّا، القصص الحقيقية دائمًا يفوز بها المُغامر وإنْ خسِر فلا قصة

بلا مغامرة، وحلاوة الحكاية في زاد الرحلة.

أشعلت سيجارًا كوبيًا في بلكونة منزلي القديم بشارع فؤاد، يـــــاه! الليل يهيج الذكريات في كياني، اجتياح لذيذ حين وقع بصري على محل الورود الأقدم في الإسكندرية كلها "أوبافيون دي فلوريل".

لقائي الأول بالحُب الذي أخافته الأيام، وما زال يدبُّ في قلبي كأول يومٍ التقيت معها أمام أوبافيون.

إنّها "سِيلين" بمعنى إله القمر عند اليونانيين، أقسِم أنّ يديها الدقيقتين الرقيقتين المنحوتتين من كمثرى أحسّ بدفئيهما بين يدي في تلك اللحظة.

هُنا كانت رسمتي الأولى لها والمحبّبة إلى قلبي، وقت أن تأمّلت ملامحها بالتفصيل، في ركنٍ بالبيت فيه صندوق جوابات حُبنا وبجواره ذلك البورتريه.

تحسّسته كأعمى يستكشف الحياة، مسامُها نبت الزمن من بينهم وردًا أبيض كنبات قلبها، رائحة الشمس في اللوحة فوّاحة، هي أجملُ لوحة فنية خلقها الله على الكوكب الأرضي، انحناءاتها غامضة فاتنة مُتفرّدة أثيرة محفورة في كهف هُناك آخر الدنيا، في حديقتها تكمُن كُل تفاصيل الفن.

ما زلتَ يا شارع فؤاد فيك رائحتها، لم تُغيّرك الأيام مثلها، لم أرَ شارعًا في العالم كله يحفظ روائح العشاق والذكريات مثلما تفعل،

حتى عالمك السحري كان للإسكندر الأكبر فيه نظر حين جعلك منارةً للثقافة والفن.

اليوم عُدتُ إليكِ يا "ميلين" مأجدكِ بطريقةٍ ما، لا بُدّ أنّ قدركِ مُتصلٌ بنبض قلبي.

أزحتُ تُراب الجرامافون القديم، دوّرتُ في إسطوانات والدي الشمعية فإذا بأسمهان يُبعَث صوتها من جديد في شتاء الإسكندرية الغالب على الحُب بأغنيتها المحبّبة إلى قلبي:

يا حَبيبي تعالَ الحقني شوف اللي جرى لي

مِن بُعدَك

سَهرانة مِن وجدي بناجي خيالَك

مين قدّك

وانا كاتمة غرامي، وغَرامي هالكني

وللحق كأنّها كانت تخاطبني، نعم، فحبيبتي "ميلين" كانت تُغني وصوتها عندي أجمل من شارع فؤاد نفسه، رُبّما أحبّها مثلي بجسدها الذي يحمل روحه في عينيها الكرتونتين، أو رُبّما كان في قدميها الجميلتين رقة لا يتحمّلها عاشق مَرّ عليه من قبل.

اختفت أسمهان من أذني فجأة، صوت رنين من الجرامافون غريب، صفارة عجيبة كأنّ أسطوانته أصابها عطلٌ بفعل الزمن، لكن تبلدت شكوكي إذ رأيته يمرّ أمامي، إنّه المخلوق العجيب فيديلس،

مَن يبحث عن مَن؟!

نزلتُ مسرعًا لأتتبّعه؛ علّني أعثر على شيء قبل أن أقابل الشيخ حبيب بمسجد سيدي "عبدالرازق الوفائي" ليقودني إليه.

بداخلي شعور أنّ وراءه حكايةً أكبر ممّا أتصوّر.

خطواته سريعة كالشبح، إذ قطع حوالي نصف كيلو متر بمجرد نزولي من الدور الثالث بعمارة "الأشرفي".

لم يكن أمامي حلًا لألحق به سوى بسيارتي من ناحيةتقاطع شارع فؤاد والنبي دانيال، هو نفس مكان اختفاء "ميرفت"، ثم انعرج في اتجاه ميدان "المنشية"، تحديدًا شارع "سعد زغلول"، وداخل تخريمة تقودك إلى أحد أزقة المنشية دخل من ممر "نجيب بك".

ركنتُ السيارة جانب الطريق، ألقيتُ بنفسي وراءَه، الأضواء الشاحبة تحتضنها عماراتٍ عتيقة من زمنٍ بعيد، كأنّما بسحر ساحرٍ انتقلت من عالمٍ إلى عالمٍ جديد.

حواري قديمة جدًا، مَرّ من بين قهوة اسمها "الهندي" تقع في التقاء عمارات داخل الأزقة مُعلّق في جميع جنباتها الدائرية صورًا للرئيس جمال عبد الناصر بأشكالٍ مختلفة.

أقسم أنّني رأيتُ رجلًا بلغ من العمر أرذله يتكئ علىعكازه مَارًا في الاتجاه المقابل أمامي ليقف أمام صورة لجمال عبد الناصر وأعطاه التحية كأنّه لا يزال حيًا بيننا.

عبرتُ كل هذا الجو الغريب لأتتبع فيدياس في هدوء، لدرجة أنّني خلعت حذائي في يدي؛ لكي لا يُسمَع صوتي، فبعض الأزقة الثالثة صباحًا لا تَسمع فيها صَريخ ابن يومين.

حتى وقف أمام خمارة "كاب دور"، كنتُ قد سمعت عنها منذُ زمنٍ قبل أن يُصبح اسمها اليوم خمارة "الشيخ علي".

استغربتُ الاسم كثيرًا مِثلما استغربتموه أنتم عندما قرأتموه، لكن الدهشة هُنا لا تُقارَن عن حكايات ذلك البار، إذ لا يزال محتفظًا بلافتته القديمة "كاب دور" منذُ تأسيسه سنة 1908.

تذكر انك حملت رواية فيدياس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

الأضواء الخافتة تُزيّنُه مِن هَامِه إلى رأسه، يصفُد بابَه الزجاجي تُرائي الهيئة، تَسمع مِن خلفِه ألحان العُود لأغنيات سيد مكاوي وأم كلثوم وعبد الوهاب.

لم يتغيّر أثرُه، فالبلاطة المَلكِية والزُخام الجِرانيتي الأثري، حنفيات البيرة، والسلالم الخشبية، كُلها أشياء قاومت الزمن وتحدّته، لِتُصَوِّر في عقل كل مَن يُشاهده جَماليات الزمن القديم.

كما أنّ الصور المعلّقة عَلى جُدرانه تَحكِي قِصَص وروايات عَن حَياة الشيخ "محمود علي"، والذي اشترى المَحل مِن أصحابه الذين

كانوا من أصلٍ يوناني.

برغم ضيق المكان الذي قد لا يَحوي سوى أربع مناضد وبار تجد فيه رحابة العالم وجنسيات يسعَها قلب الخمارة على إيقاع الكؤوس، عالم الخمارة مَسحور.

جلس فيدياس على البار بأناقة محترف، ليُنادي بتأفُف:

- ويسكي يا إسحاق.

أمسك بالكاس ثم سحب النتيجة الكرتون المعلّقة جانب البار نظر إليه إسحاق مُمتعضًا برأسه يمينًا ويسارًا دون أن يحرّك لسانه بكلمة تعبّر عمّا في باطنه، ماحبًا قلمًا مِن جَيبه ليرسم في عبثيةٍ مألوفةٍ كأنّه وُلِدَ هَكذا.

ظلّ يُحملِق في الطاولة المقابلة له بزاوية خفيفة، كانا رجلًا وامرأةً ملامحهم إيطالية، أمامهم زجاجة خَمرٍ لونها أخضر ليُنادي هذا المخلوق العجيب شكلًا ومضمونًا على إسحاق، إذ بدا لي أنّ بينهما معرفةً لَئودة.

- هاتلي كاس تاني يا إسحاق، الرسمة مخلصتش.

- والحساب يَا فيدياس، مش اتفقنا كاس عليك وكاس علينا؟

- ما انت لسه واخد آخر خمسين جِني في جيبي يا حمار.

كادا أن يُمسِكا في خناق بعضهما، لولا أن ناديث على إسحاق:

حسابُه عندي لحد ما يخلّص.

هكذا قلتُ لإسحاق بصوتٍ مَسموعَه جيدًا، اعتقدتُ أن يُلقي على مسامعي كلمة شُكر تُوحّد الإله، لكنّه على عكس العادة رمقني بطرف عينيه ثم انغمس في رسمته مرة أخرى.

حتى رفع الكأس لنهايته دفعةً واحدةً فانتشى في خِدر لذيذ بان في حركات يده، ليُنادي على إسحاق بلهجةِ آمرةٍ نافذةٍ لا مفرّ من تنفيذها فورًا: سَفِنجة.

كمَن ينتظرها بَعد صبرٍ هتف إسحاق في انبساط: أخيرًا.

ليقوم بمسك السفنجة ماسحًا بها رُخامة البار التي يتساقط عليها جميع أنواع الخمور، ثم يعصرها له في كأسه مثل حامل العرقسوس.

هنا تَرك إسحاق البار، قمتُ وراءه؛ علّني أجد إجابةً عن مَاهيةِ هذا المخلوق العجيب، بادرتُه بورقة مِن فئة المائتين:

- مِين ده يا إسحاق وإيه حكايته؟

لم ينطق، لكنّه ردّ لي الورقة كأنّ مسّها شيطانيًا أصابه.

أمسكتُ يده بعشم: أرجوك جاوبني.

نَظر إلى عيني فشعر بنظرات استِعطافٍ وإلحاح وراءَها شيءٌ غامض، تنهّد ثمّ نطق بوشوشةٍ خفيفة:

- لو عاوز تعرفه بجد ابعد عنه.

لَم أفهم تلك العبارة العجيبة فبادلته: إيه حكايته، تعرف عنه إيه؟

- مَعرفش عنه غير اللي إسكندرية كلها تعرفه، دا يا أستاذمحدش يعرف عنه أي حاجة، غير إنُه عايش في مراديب إسكندرية اللي الحكومة نفسها متعرفهاش.

لا عرفنا ليه أب ولا أم، وحكاياته مبتخلصش، تقدر تقول دا أجن عاقل في الدنيا دي.

- بيقول إنه يعرف مكان الإسكندر الأكبر؟!

أهو كلام بيقوله.

ثم رفع عينيه لسقف الخمارة التي تزيّنها سماء الزمن الخشبي القديم، كمَن يتذكّر هيئًا ليقول:

- بس أنا شوفت مرة معاه تمثال فِعلًا للإسكندر الأكبر، وكان حجمه صغير واتعرض عليه قُدامي هُنا مليون دولار.

قال للخواجة وقتئذ:

- ولا بمال الدنيا، إنت متعرفش أنا جيبته إزاي، أناجبتهولك من العالم السحري اللي ميعرفهوش غيري.

- إنتو عايشين في البقايا وانا عايش في مدينة السحر والنور.

الكلام ده ييجي من سنتين كده.

- وبعدين كمّل.

- فاكر يومها كان لافِف التمثال زي العيل الصغير تقولش ابنه، بيقولوا إنّه الشيخ حبيب لقى فيديامس أو ابن المقدوني ده في سرداب تحت جامع سيدي الوفائي، ومن يومها وهو حكاياته مبتخلصش.

آخرهم من كام يوم ييجي يسكّر قُرب الفجر ويجري على الكورنيش زي العيل لحد لسان جليم ويصرخ:

- إنتي فين يا "روكسانا"، هجيلك أنا حبيبك.

ما إن سَمعت اسم "روكسانا" حتى انسحب عقلي من مكانه كأنّ خمور إسحاق انسكبت على مُخّي دفعةً واحدة.

انفلتَتْ يدُ إسحاق من يدي حِين نادى عليه أحد الزبائن، تاركًا حِيرتي لا تُقاوم، هفاهي تُتمتِم:

- الأميرة روكسانا عشيقة الإسكندر الأكبر الذي هزم جيش أبيها وتزوّجها، تلك الفاتنة التي يحكي عنها التاريخ بعظمة، هل يُمكن أن يكون قد رآها فعلًا، كيف عرفها؟!

أنا الآخر أتشوّق لرؤيتها.

كنتُ قد ترجمتُ بحثًا يونانيًا عنها للغة الإيطالية منذُ سنتين وأعجَبت بها للغاية.

ازدادت ظنوني أنّ فيديامس ليس عاديًا، بل مَا كان عاديًا هو الناس

الذين لا يفهمون لُغته ولا يؤمنون بقلبه.

وقف أحدهم وقد غلبه السُكر مترنحًا كبهلوان مُحترف حوله امرأة تتمايل في هَيطَنة فنية عجيبة، كان يُمسك بمكبر الصوت وكأنّه يتحدّث باسم الفراعنة: أيُها الملك، إنّك بُعثت حيًا كما متّ حيًا.

ثم انتقل من بلاغة الفُصحى إلى انحطاط العامية مُغنيًا: لاءا لاء.. تبقى معدية لاءا لاء. تقابل الملك.لاءا لاء. وتقوله تعالى.. تعالى على القصر لاءا لاء.

والخلق ما بين راقص وضاحك، مُستمتعون بالموسيقى الصاخبة التي يُصاحبُها رضا إبليس العامر.

رأيته في عَين إحداهُنّ تُحاول إغوائي، والغواية هُنا مُتأوّدة في غِلالةٍ من الحرير الصيني تَشِفُ وتَصِفُ كل مفاتن الإله.

لكن لا أعلم مَا كان في عيوني جعلها تشعُر بتأنيب الرُوح الحيّة، فالتفتت بما تبقى بها من قَطرات الفِطرة المُستعذَبة على وعدٍ بإشعارٍ آخر.

كان الشوقُ يقتُلني لرؤية "الشيخ علي" الجامِع لهذه الفوضى المُنتشية بالغناء والهروب من لذائذ الوهم، الذي يُمكن لأي أحدٍ من مُصاحِبي هذا المكان أن يُقيمه مع زوجته في غرفة نومهما، ويستفيقان في أحضان بعضهما بنَهَمٍ لا يُقاوم.

على كُلٍّ استمعتُ في الطاولة المجاورة لرجلٍ يُحادِثأحدهم عن واقعة مُثيرة عَلِمها كل مَن هُم حول المكان في إحدى مُدن

الإسكندرية، وأنا كنت أعرفها بالطبع.

لكن الطريقة الساخرة التي كان يحكي بها الرجل شَدّت انتباهي، فكانوا يضحكون بعُنف وهُم يحكون عن أربعة من الأوغاد دخلوا إلى أحد بيوت الله ليلة وقفة العيد لما بَعد العِشاء إلى قُرب الفجر.

وسرقوا مكنسةً كهربائيةً وفلتر كبير، ثم صعدوا أعلى سطح الجامع وشربوا حشيشًا وعندما "انسطلوا" -سامحوني على تلك العامية فمزاجي غير رائق لانتقاء الكلمات وأنا أحكي تلك القصة الشيطانية- نسوا الفلتر ثم كتبوا بالفحم على جدار كبير بالمسجد "ربنا ظالم"..أستغفر الله.

الحكاية حقيقية يا سادة، لكن ما هو أكثر هزليةً ضحك الخَلق عليها، وكأنّه عمل كوميدي، هي بالتأكيد كوميديا لكنّها سوداء.

حتى قال أحدهم مُشيرًا إلى الراقصين على المسرح وهوينفجر من الضحك: هُمّا دول اللي سرقوا الجامع.

جاءت الفقرة التي كنت أنتظرها، وللأمانة لم أتوقّع أن تأتي بهذه السرعة، فقد نادى "لبطشي" البار: ودلوقتي هيطلعلكم الشيخ علي.

هلّل الخَلق وقاموا يتنطّطون من البهجة، الشيخ علي رجل بلحية مُهذّبة، رجل "كُبّارة" لو رآه أحدنا لانخدع فيه من الوهلة الأولى، فرغم أنّني في بار إلّا أنّني توسّمت فيه الخير ولا أعرف لهذا سببًا، ولا أعلم أيضًا إن كان هو صاحب البار أم لا؟!

أمسك الشيخ علي بالميكرفون يُغنّي، نعم، يغني أغنيةً قديمةً لأم

كلثوم "وصفولي الصبر" ولا أعلم مَن هو ابن ***** الذي وصف له الصبر؟!

ليفتح هذا البار ويصفه باسمه الغريب، ويُطربنا بأغنيةٍ لها في وجداننا شجنٌ عتيق، وللحق صوته كان جميلًا وهو يغنيها حاملًا في يده رُزمةً من الأموال يرُشُّها على أجساد المومسات الحسناوات من النساء.

ولقد نجدني صوت الراديو وهو ينبعث منه أغنية أحبها جدًا لفريد "قلبي ومفتاحه..دول ملك إيديه" وهذه الأغنية لمن لا يعرفها لفريد، غنّاها في حفلةٍ قديمة بالإذاعة مكوّنة من ثلاثة وثلاثين لفة، وفي تلك الحفلة الوحيدة غنّى فيها فريد كوبليه نادر لم يُسجّل إلّا مرة واحدة كان يقول:

يا مسهر دمعي على خدودي

كرّهني غيابك ف وجودي

وان سيبتك أدبل على عودي

أرجع من غير ما تقول عودي.

كان ڤيدياس قد انتهى من فِعلته، وقف أمام طاولة الطليان وألقى البورتريه باستخفاف مُلقيًا كلمةً بالإيطالية تعني مرحبًا: تشاو.

ثم فرّ هاربًا من البار، قبل أن أهُمّ للمغادرة، وجدت الرجل وامرأته ينظران إلى اللوحة في دهشةٍ ومتعة.

فقد رسمهما بطريقةٍ مدهشةٍ لم تحدث على الطاولة، وإنّما حدثت في خيال فيدياس، إذ كانا في البورتريه يقتربان من بعضهما وشفاههما تتلامس في نفس الكأس وهي تُلاحق عيوناتهما الضاحكة بالحب المستبشرة بالقُرب.

خرجت للحاق بهذا المخلوق العجيب لأجد الإيطالي يحاول اللحاق به هو الآخر، يُنادي عليه في ميدان المنشية وفيدياس يلوّح بيده دون النظر للوراء بالابتعاد عنه.

استمرّ فيدياس قاصدًا تمثال "محمد علي" تحت الشتاء ونحن خلفه، كأنّه يقود جيشًا من الروم وراءه.

فيدياس في كونٍ وحده رافعًا رأسه بزاوية غريبة يتأمّل التمثال محاولًا التسلّق إليه.

فعلها المجنون، صعد إلى جانب محمد علي يتأمّل بيده كل نحتٍ فيه، والإيطالي يقول له بلكنةٍ عربية دهسها الحصان:

- انزل، انت بسطتني لازم أبسطك، وأخرج دولارات من جيبه ملوّحًا له بها للأعلى.

لم يُعِره -فيدياس- أي انتباه إلّا عندما أخرج له من حقيبة يده زجاجة خمر لونها أخضر تبدّل حاله، نزل من على حصانه تاركًا محمد علي وحده.

المشهد عبثيًا بامتياز، لكن الإيطالي حذّره من أنّ هذه الزجاجة واسمها "Absence" مُعتّقة من عشرين سنة، لا يفتحها ويستنشق

رائحتها؛ حتى لا يُصاب بهلاوس.

كأنّ فيدياس لا يسمع ولا يرى إلّا لونها الأخضر الباهي، فتحها مرة واحدة دون أي اهتمام بكلام الرجل، واستنشقها بشراهةٍ عجيبة.

تذكّرتُ أمر السيارة لألحق به، وبالفعل ظلّ يشرب وهو يمشي على الكورنيش، وأنا في سيارتي أقود على مهل بجانبه مثل ظِلّه.أقول له: اركب.

لكنّه في دنيا أخرى غير دُنيانا، يصرخ مثلما قال لي إسحاق: إنتي فين يا روكسانا.

إنّه كمين الشرطة أمامنا الرابعة فجرًا، اعتقدتُ أنّهم سيقبضون عليه، فقد كان هاهزًا زجاجة الخمر كفَن يرفع سيفه لمحاربة جيشًا غازيًا للإسكندرية، كأنّه ابن المقدوني فعلًا كما وصفه إسحاق.

وقفتُ في الكمين بموازاة فيدياس تمامًا، فإذا بحسام باشا ينظر له رائيًا حاله، حتى قاطعه ضابطًا جديدًا قائلًا له:

- شوف يا حسام باشا ولا بيهفّه حد هجيبه.

يمسكه حسام باشا من يده: سيبه دا فيدياس، راجل ولي وليه كرامات.

- ولي وفي إيده إزازة خمرة إزاي يا باشا؟

- ياااه، دي حكاية طويلة، دا النبي دانيال مضى مكانه شخصيًا.

3

أنا لا أسرق الانتصار.

– الإسكندر الأكبر

أكملت مع "فيدياس" إلى -لسان جليم- لأكتشف مفاجأةً أخرى عن هذا المخلوق العجيب، امرأة تجري عليه إذ كانت تجلس وحيدةً بجوار لسان جليم، عندما رأته يصرخ في اتجاه البحر وقد اختلطت دموعه بزجاجة الخمر أمسكت يده لتهدئته، لكنّه قال في لهجةٍ قوية:

- ابعدي عني، لا أحب البشر انتي فين يا منى؟!

لم تتركه، ظلّت جانبه وهو يقترب إلى آخر اللسان، للأمانة خِفتُ أن يُلقي بنفسه في غياهب البحر مثل مدينة الإسكندر الغارقة، رُبّما يجِنُّ فيدياس إلى هذا العالم الذي يعيش في داخله.

لكن المرأة كانت ذكيةً وحالمةً للفت انتباهه: اعتبرني أنا منى.

نزلت الجملة على فيدياس ككرات ثلجٍ سقطت دفعةً واحدةً على رأسه، لفّ إليها متلهفًا ولو كذبًا على نفسه، غاص في عينيها دون باقي جسدها.

- عينيكي مفيهاش اللي هوفته فيها.

- وإيه اللي هوفته فيها؟

-كانت غويطة، فيها أسرار ووعود يغرق فيها أي بحّار عنيد، هي الوحيدة اللي سحرتني، ابعدي عني انتِ متعرفيش حاجة عن الدنيا دي.

- طب عرّفني.

قالتها ويدها تحتضن يده، لَانَ ڤيدياس لها، نظر إلى يده كأنّ أول مرة تلمس يده بشرية.

- هي الوحيدة اللي عبّت معايا البحر كلام.

- وهو البحر بيتعبّى كلام؟

- أيوووه، الخمرة دي كل توت بنشربه بيدخل جوانا بكلام ومكانه في الإزازة فاضي، فكانت بتتكلم جواها وتشرب توت تاني وتعبّي مكانه كلام لحد ما تخلّص الإزازة وترميها في قلب البحر كان بياخدها جواه بيسمعها، قانون البحر هو قانون منى.

- ازاي دي بقى؟

- تعرفي إنّه الغرقان لو جوه البحر وبيندّه على اللي واقف في الشط ميسمعهوش، لكن اللي على الشط لو ندّه يسمعه اللي جوه، عشان كده منى كانت بتعبّي البحر كلام؛ عشان يبقى في لغة بينهم.

تخيّلي البحر بيحب صوت حروفها بيحضن كلامها، بيبلع الإزازة وما تعومش على المايّة أبدًا؛ دا لإن روحها غويطة.

- شوّقتني ليها أوي، هي فين؟

- منى، يـــــــاه، شوفتها مرتين بس ومش فاكر غير عينيها، رسمتها عشرين مرة والحاجة الوحيدة اللي بتكون صح هي عينيها، بس هلاقيها تاني..دي طلعتلي من مرداب سحري، هتشوفيها، العالم كله هيشوفها، قزّيت أوصلها خلاص.

- معقولة يحصلك كل ده من شوفة؟

- وأكتر من كده كمان، مستعد أقول للعالم كله على مكان مقبرة الإسكندر الأكبر بس ألاقيها، أبص ليها ولو ثانية، تمنها غالي ولا يكفيه مُلك إسكندرية كله.

على مقربةٍ مني صوت أقدام تقترب، كان لصًا يحاول سرقة حقيبة يدي، ما إن انتبهت لخُدعته وهو يقترب حتى اختفى ڤيدياس مرة أخرى تاركًا المرأة وحيدةً تفكر في كلامه الغريب.

*****

4

لا شيء مستحيل على مَن يحاول.

- الإسكندر الأكبر

قبل أن أذهب لمقابلة الشيخ الحبيب في جامع سيدي الوفائي؛ لأعثر على مرداب ڤيدياس وقصته الغامضة.

فتح لي فندق "باراديس" -لو متريول- حاليًا أبوابه العتيقة من سنة 1902 ليوناني يُدعَى "ديميتري"، بمجرد الدخول إلى بهو

الفندق الرئيسي ستجد لمسات فنية وجمالية وضعها أهم فنّاني القرن -التاسع عشر- تتجسّد فيه ديكورات مُستوحاة من توسكانيا الإيطالية، ويحتشد بهو الفندق بالتماثيل اليونانية والتُحَف العتيقة واللوحات الزيتية ولوحات الزجاج المعشق.

الأسانسير يحمل النسخة الأولى من زمن الأبيض والأسود، وزِدْنا إلى أبعد من ذلك بكثير.

إذ يُشير التاريخ أنّ مكان المصعد كانتا مسلتَي كليوباترا.

عندك حق يا فيدياس، نحن نعيش على البقايا، تفتح نصف ضلفته الحديدية بمقبض سحقته أيادي البشر والعشاق معًا إلى روف الفندق، الذي يطلُّ على سحر عروس البحر المتوسط.

هذه الأناقة تشاهد فيها من علوها الشاهق تمثال "سعد زغلول" الذي نحته -محمود مختار- سنة 1938، وهو يقف شامخًا شاخصًا في اتجاه الطليان واليونانيين القادمين من البحر.

يبعد الفندق دقيقتين سيرًا على الأقدام عن "متحف الإسكندرية القومي" واثنين كيلومترًا عن "مكتبة الإسكندرية" ما أحلى القهوة في هذا الغروب النجمي الأثيرا

قطع رشفاتي رنين هاتفي، فقد كان "موافي" يتصل.

- هستناك النهارده في سرداب النبي دانيال الساعة واحدة بالليل، متنساش قطعتين الألماس، هوصّلك لآخِر نقطة فيها التابوت

الزجاجي للإسكندر اللي شافه ستيليوس، هوريهولك بعينك.

- ممكن نأجّلها يا موافي؟

أخرجتُ قطعتي الألماس الخالص من جيب الجاكيت، أتأمّلهما، ألقي على ثروتي النظرة الأخيرة، الغروب ينسحب من بينهما شعاعًا أزرق سماويًا لامعًا في عيني.

لكن حُلم مقبرة المقدوني أكبر من ثروات الدنيا.

يكفي أن يُكتب اسمي على صفحات الجرائد في العالم بأنّني مكتشف مقبرة الإسكندر العظيم، ليخلد اسمي جانبه إلى يوم يبعثون، وألتقي بسيلين التي لا تغيب عن خاطري لحظة.

- أنا الوحيد اللي أعرف مكان مقبرة الإسكندر الأكبر كلها يومين يا بشر.

هكذا صرخ ابن الساحرة فيدياس أعلى تمثال سعد زغلول، تسلّق جانبه والخَلق تحته مجتمعين في دهشة من جنونه غير المألوف، كأنّه قرأ أفكاري ويريد إيصال رسالةً لي.

هل كان إسحاق على حق حين قال:

- لو عاوز تعرفه بجد ابعد عنه؟!

بالفعل ابتعدت عنه ليطاردني المجنون، ماذا يريد مني، هل يعرف ما أبحث عنه وأفكر فيه حقًّا؟!

نزلت لأشاهده مثل باقي الناس، كعادة الأشباح فيه لمحته يدخل

مقهى نادي الشطرنج، جريث مسرعًا نحو المكان فإذا به يدخل في خيلاء وكبرياء.

إذ المقهى عبارة عن ترابيزات مُوزّعة بمسافات متساوية في المكان الفسيح، كل اثنين يتقابلان أمام رقعة شطرنج من الحجارة، منحوتين بدقة ومزاج عالٍ.

ليهتف واحدًا إلى فيدياس:

- تعالى يا خالق الشطرنج، اجعل اصنامك تتكلّم، أنقذني من ورطتي.

قام الرجل من مكانه مُفسحًا له الكرسي، كأنّ فيدياس سيده وهو الخادم، وقبل أن يجلس المخلوق العجيب نظر له بلكنةٍ فيها عتاب:

- دول مش أصنام يا حمار، أنا نحتُهم من قلوب الحجارةمن مشاعر، إنتم اللي مبتفهموش غير لغة البشر.

ابتلع الرجل الإهانة بابتسامة وذلال، ليقوم فيدياس بنظرة سريعة ثم يمسك قطعته التي نحتها، حصان جميل أكاد أصدّق أنّه ينظر له بحقٍّ وحقيقة، لمسه ليشعر به، قائلًا:

-كِش ملك.

هلّل الرجل واللاعبون في بغددةٍ من هذا الفتح على رقعة الشطرنج، لم يرُق لواحدٍ آخر يبدو على ملامحه المكر والدهاء، إذ بان أنّ موقفه في الشطرنج لا مفرّ من فوزه بها:

- تعالى يا فيديامس، وزّيني هتعمل إيه في المعركة دي؟

كما فعل رفيقه بالطاولة، جلس الملك، ظلّ فيديامس يكلّم في مخلوقاته بُرهةً من الزمن وكأنّه لا حياة لمن ينادي، أثار سكوته بُرهةً من الزمن الشك في النفوس.

صاح الرجل:

- شوفت؟ مش قولتلك؟ مالهاش حل، خسران خسران المزّادي، هكتب في السي في بتاعي إني هزمت مخلوقاتك يا فيديامس.

سكت ابن المقدوني ثم سحب الملك من مربعه بحركة خفية، سحرت أعين الناس، واسترهبهم فيديامس حين قال:

- صحيح، إنت مخسرتش، لكن مفُزتش، تعائل يا حمار.

هاجوا وماجوا، ظلّوا يتغامزون كيف فعلها ابن المقدوني، لا بُدّ أنّه ساحر عظيم، فالجميع ظنّ أنّه خاسر بالثلاثة، لكن لفيديامس دائمًا رأي آخر، وسط تصفيق المهمّشين الحاد اختفى المجنون.

أذان العشاء يُرفَع الآن حسب التوقيت المحلي لمدينة القاهرة، قفز الصوت من تلفاز المقهى.

عليّ اللحاق به في مسجد سيدي عبد الرازق الوفائي بشارع النبي دانيال لمقابلة الشيخ حبيب.

أسرعت للحاق بالصلاة معهم، حتى سألت المجاور لي بالصف:

- فين الشيخ حبيب؟

أشار لي على مكان الإمام، كان الشيخ "حبيب" رجلًا كبّارة، ربّما قارب على الثمانين، يستند بسبحته العاجيّة على منبرٍ خشبي ذي طابعٍ فني، دنوتُ بقُربه، رمقني بعينيه المتصوّفتين، شعرتُ أنّه أحسّ بفراشات بطني وهي ترقص من الرهبة قبل أن يشاهد عقلي، إذ قال في تأنّي العارفين:

- تعالى معايا.

قمتُ معه كالممسوس، أنزلني إلى سرداب بجانب الضريح، نهايته قفل حديدي هلكه الزمن وعفا عليه، أخرج مفتاحه من جيبه وأدار ترس الزمن معه.

نزلنا اثنين وعشرين درجةً خشبيةً للأسفل، وكلما اقتربنا ساد الظلام حتى أخرج الشيخ حبيب كشّافًا صغيرًا -ربّما يستخدمه في خلواته- وقف على مسافةٍ ليست ببعيدة من مكان باب السرداب، ليرتكن على عمود أثري ذي لونٍ أحمر، وهو ما فسّرته عندما قال:

- السلام على أرواح النائمين من رأس التين حتى آخر وليٍّ من العارفين.

هُنا التَقَيتُه، كان ملفوفًا في عباءةٍ مقدونيةٍ مثل تلك التي كان يرتديها الإسكندر الأكبر في لوحته مع روكسانا، وأشار إلى تلك اللوحة الأثرية في ركنٍ بالمكان.

كان ساكنًا وهو محتضن تمثالًا صغيرًا للإسكندر الأكبر ومعه ورقة

مكتوب فيها:

- "فيدياس ابن المقدوني، مَن اعتنى به اغتنى، ومَن جاء عليه أو أخذ لُفافته وتمثاله افترى".

رئيته لحد ما وصل سنه أربع سنين, وبدأت حكاياته معايا اللي ما بتنتهيش، هوية يختفي في السرداب, هوية ينام فيه, حياته كلها ما بين حتة القماشة اللي بيلف فيها التمثال اللي حفظتهوله.. دي أمانة يابني.

ومن يومها الناس في النبي دانيال يسمعوا صوته بالليل تحت السراديب، لدرجة إن الأمهات كانوا بيخوّفوا ولادهم بيه، حتى السؤال بيخافوا يسألوا عنه.

- وليه بيخافوا منه يا هيخ حبيب؟!

- الخوف دا عِلّة مالهاش دوا، الناس بتخاف من المجهول وبتهرب منه، مع إن المجهول ده هو اللي بيدوّروا عليه بس محدش فاهم.

- صحيح هو يعرف قبر الإسكندر الأكبر فين؟

- نسيت أقولك إنّه هو الوحيد اللي حافظ السراديب بالحتة، لدرجة في يوم جالي خبر إنّه الصيادين لاقوه طالع من بين البحر، هربوا وخافوا، بس الحقيقة إنّه طلع من سرداب بيودّي على البحر طوالي، أمّا حكاية يعرف أو ما يعرفش فدي إجابتها عنده، هو مش قال يومين وهنعرف؟ استنى أو اسأله.

- إنت متعرفش مكانه فين؟

- مكانه؟ هه، مكان فيدياس مش شوارع بتدب فيها الأقدام، دا سحر فيه عقول وروح.

- تفتكر يا شيخ حبيب مقبرة الإسكندر موجودة فعلًا؟

- طالما في خيالك تبقى موجودة يابني، وبعدين مفيش في التاريخ "تفتكر" دي، كل حاجة ليها أكتر من احتمال بشرط إنك تفكّر بروح الأموات.

مثلًا خُد عندك.. الإسكندر الأكبر نفسه اللي قال إنه ذي القرنين؛ لإنه كان بيلبسه فعلًا وفي أحاديث بتأكّد كلامي.

حتى النبي دانيال نفسه في أمانيد بتقول إنّه لقمان الحكيم، طالما روحهم بنحس بيها جنب الضريح يبقوا موجودين، مش مهم الأسامي المهم المعاني يا بني.

- هو فيدياس اللي رئيته نحّات فعلًا؟

- دا جن مصوّر، معرفش اتعلّمه فين، تعرف ساعات الأرواح بتعلّم.

- أرواح؟

- أيوه الحجارة دي روح، مش بتسبّح ربنا؟ عشان كده بتتشكّل في إيده، بتلين لخبطاته، سمعته كتير بيكلّم الحجارة، قلت ده مجنون، لكن الحقيقة إني ظلمته.

- ظلمته؟!

- أيوه؛ لإني ظنيت فيه الجنان، جالي مرة في المنام ومنامات اللي زيي بتبقى رسايل يابني.

- قال إيه المنام يا هيخنا؟

- لاقيته قاعد في مكان واسع تحت شجرة ومعاه حجارة، غلبه النوم، بعد فترة الدنيا مطّرت، قام دخل كهف ونام فيه، لقى راجل صوفي، علّمه التأمّل، وازاي الطبيعة فيها أسرار وخفايا كتيرة.

كان من ضمنها الحجارة اللي نام جنبها بره، بعد أيام لما الجو اتعدل لقى الحجارة اللي كان هينحتها نبتت زهرة عباد الشمس من تحتها.

فقال:

- ياريتني كنت حجارة، ياريت الناس تعرف إن الحجارة بتحس وبتتألم وليها قلب زينا.

- معقول يا هيخ حبيب، ده بالظبط اللي حصل مع فيدياس أبو النحت باليونان، لما طلب منه الراهب إنّه يبنيله معبد على جبل "الأوكروبوليوس"، أعلى نقطة يخاطب منها الناس، وهو في طريقه قابل راهب في كهف وعلّمه التأمّل ونفس حكاية الحجارة والأزهار حصلت، عشان كده جاتله فكرة الأعمدة اللي هايلاها شجرة التوليب، وكانت فكرة لفيدياس اليوناني إنه يبني معبد البارثينون، وكله بفضل الراجل اللي علّمه التأمّل.

- أهو أنا كنت الراجل ده اللي جه لفيدياس في المنام.

- معقولة الحكايات بتتشابه للدرجة دي؟

- لأ الحكايات مبتتشابهش، الروح هي اللي واحدة، والأرواح بتلاقي اللي زيها حتى لو الجسد مات، بتفضل طايرة زي الفراشة، عارف أكتر واحد يعرف مكان المقبرة مين؟

- مين؟

- بطليموس الثاني، دوّر في تاريخه؛ لإنه هو اللي نقل المقبرة.

ثم أزاح الشيخ حبيب ستارة خضراء وراء هذا العموداليوناني، كشف عن تمثال عتيق من الجرانيت للإسكندر الأكبر يبلغ طوله مترًا ونصف، يا إلهي! أين وجده فيدياس؟

- ده اللي لاقيته ملفوف مع فيدياس يا شيخ حبيب؟

- طبعًا لأ، ده نحته فيدياس قدام عيني.

- إزاي مش معقول، ده عمره ييجي من أربعتلاف سنة.

- متستغربش، فيدياس الشخص الوحيد اللي يعرف الخلطة السرية.

- خلطة سرية لإيه؟

- لحد كده ومينفعش أتكلم.

وقبل أن أغادر لمحت خاتمًا ذهبيًا خالصًا يبدو أنه أثر روماني نادر،

وعليه نقوشات لوجوه صغيرة من العصر المقدوني، أبديتُ إعجابي به قائلًا:

- حلو الخاتم ده يا شيخ حبيب.

- يـــــــاه، دا هدية ڤيدياس الوحيدة ليّا.

- إيه قصته؟ إزاي لقاه؟

- سنة 2007 كان في واقعة عجيبة حصلت هنا على قمة شارع النبي دانيال لواحد اسمه "وليد عبدالعاطي" اختفى مرة واحدة وهو في دكانة الأحذية بتاعه، مراته بلغت عن اختفاؤه لقوا فتحة في الأرض بلعت المحل باللي فيه.

نزلوا يدوروا لقُوا سرداب سري بيوذي على عمود السواري من جهة ومن جهة لمحطة الرمل، مراته كانت دايمًا بتقول عنه إنه بيسمع أصوات غريبة وأشياء عجيبة تانية بالليل، واختفى.

الحكومة جابت ڤيدياس خبير السراديب، ابن المقدوني زي ما بيسمُّوه استغلها فرصة وضلّلهم، لحد سرداب حزب الوفد اللي في الشارع هنا.

وكمل هو على طريق المينا الشرقي قُرب ميدان -سعد زغلول- بمحطة الرمل، ولقى مدينة غرقانة تماثيل وجابلي منها الخاتم ده.

دا قيمة أثرية لا تُقدّر بتمن يا سيدنا الشيخ.

- يابني احنا لا نرغب في الشيء؛ لإنه قيمة، بس قيمـه لإننا نرغب

فيه وبيلمس روحنا.

في هذه الأثناء، سمعنا صوت باب السرداب يحاول الانغلاق علينا ببطء، دبّ الخوف في جسدي، لينهي الشيخ حبيب كلامه.

- متخافش، وقتنا انتهى، ومعاد الاستئذان خلص، يالا بينا.

انتظر حتى انغلق الباب وحده من الخارج وأحكم إغلاقه، ثم همس في أذني:

- كلام في سرك، سردابه في شارع فؤاد تدخله من مكان سري تحت عمارة "الأشرفي".

يا إلهي! إنّها نفس العمارة التي أسكن بها، هل يمكن أن يكون بها سرداب كل هذا الزمن، فيديامس يعيش معي ولا أعرف، صحيح أنّني أقيم في الطابق الثالث وهو في سردابه السحري بالعمارة.

صعدنا بجوار ضريح سيدي الوفائي، ودّعته بمحبة بحثًا عن هذا المخلوق العجيب، فحتى لو توصّلت لتابوت "ستيليومس"، هو الوحيد الذي يعرف مدينة الإسكندر الساحرة.

كان ميعادي مع موافي قد اقترب لمشاهدة الحدث الأعظم، وهو التابوت الزجاجي الذي رآه ستيليومس من ثُقب فتحة ضيقة بسرداب سري تحت الكنيسة المرقسية للإسكندر الأكبر.

أمامي ثلاث ساعات، يمكنني أن أتمشى فيهم بشارع فؤاد؛ علّني أتعثّر في ابن المقدوني.

5

"مُنى الوحيدة مَن قلبت تاريخ فيدياس، وعرفت قانون البحر والسر القديم".

- فيدياس - إسكندرية

حكى أنّ الإسكندر المقدوني قرّر غزو العالم، فجاءه الكاهن وقال له: لن تستطيع حُكم العالم حتى تفكّ العُقدة الكبيرة.

فسأله الإسكندر: ما هذه العقدة؟

فأجابه الكاهن: إنّها عُقدة سحرية لن يستطيع رجل أن يحتل العالم من دون أن يحلها.

فسأله الإسكندر: هل فعل أحد هذا من قبل؟

فردّ الكاهن خائفًا من غضب مُلكه: لا.لا، وكل مَن ذهب من دون أن يفكها تعرّض للقتل أو فشل.

فقال الإسكندر: أرني هذه العُقدة.

ذهب الإسكندر والكاهن معًا إلى المعبد، وحالما رأى العُقدة أدرك مدى صعوبة حلها بالأيدي كما حاول مَن سبقوه.

فاقترب منها، وانتظر الكاهن أن يبدأ الإسكندر بمحاولة حلها بيديه، لكن المفاجأة أنّ الرجل الذي حكّم العالم استلّ سيفه وقطعها ونظر إليه وقال: ليس المهم كيف أفك العقدة.. لكن المهم أن أفكها،

وهي الآن محلولة.

ابتسم الكاهن بشكلٍ يُوحي بانبهاره بتفكير هذا الرجل.

أعود إليك أيها الطريق الكانوبي، فشارع فؤاد ليس مجرد شارع، بل هو متحف مفتوح لأصحاب الذكريات به منذُ بناه الإسكندر سنة 331 ق.م.

قلبي هُنا بجوار مسرح أوبرا الإسكندرية أو مسرح سيددرويش، التقيتُ بسيلين من وراء بهوه اليوناني الفسيح.

نزلت -هي- من التاكسي تبحث عني قبل سنوات، أراها تدخل كالأميرة "روكسانا" باحثةً عني، مثلما بهرت الإسكندر يومًا ما، إنّها العُقدة السحرية بالنسبة لي.

بقدر ما أشتاق لإظهار نفسي لها، داخلي شعور لذيذ يأكلني وأنا أشاهدها كالطفلة الكبيرة تدور في المكان للعثور عليّ.

قدماها الدقيقتان تغوصان في حذائها الأسود الجلدي الشتوي الطفولي، إذ يتدلّل على الأرض بدقة كيلو جرامات جسدها المنحوت بدقة وهو مقاس في أواخر الثلاثينيات بفاترينة الحياة يُداعب الكوكب الأرضي وشارع فؤاد وقلبي.

عويناتها فاتنة إلى حد انخلاع القلب من الصدر؛ تحت يديها يفتح الشهيّة للحياة كرقصة تانجو في ليلةٍ شتوية.

ملامحها حشاشة كزيناد بندقية قنص بعيدة المدى.

بالأخص تحت رقبتها لمرقد كتف الترقوة يُغري أجنحة الفراشات لتسكن فيها للأبد. شكل الصوف وهو ينسدل من رقة بشرتها ينزلق بنعومة طفلةٍ تُغمِض رموشها كسوفًا من الشمس.

انغماس أصابع قدميها في الرمل يرفع الراية الحمراء على البحر؛ إنذارًا بأمواج جاءت من الأعماق تسبح بحُسنها؛ قوانين الطبيعة انقلبت لتُقدِّم قرابين الطاعة لجمالها الهالك الطاغي.

لا يمكن أن تُوصَف سوى أنّها حالة فريدة من سحر العشق، انفجر على الأرض دفعةً واحدةً لا يقدر عليها إلّا بحّار عنيد باع قلبه لها مقابل أغلى نجمة في الوجود.

أمُرُّ من الطرقات في اتجاه عمارة الأشرفي التي أسكن داخلها، ومعي فيدياس الساكن في باطنها للعثور على السرداب، يُراودني الحُلم الأكبر لهذا الإسكندر الصغير الذي حيّر إسكندرية كلها، طرقات شارع فؤاد كلها حياة، تشعر أنّ الهواء نفسه فيه رائحة الفن وجسدها.

على البسيط رأيت الله فيها، في دائرية عينيها، فيها تكمُن كل تفاصيل الملائكة.

يا الله، إنّه مطعم "شي غابي" من تخريمة صغيرة لا تخطر ببال أحدٍ بجوار أوبرا إسكندرية، باب خشبي من الطراز الكلاسيكي تطلُّ من خلف زجاجِهِ ستائر منقوشة باللونين الأحمر والأخضر على شكل مربعات.

ما إن تعبره تصبح في لمح البصر داخل مطعم إيطالي من طراز السبعينيات بالإسكندرية مُعبّقة برائحة التوابل الطازجة، وتنقلك الموسيقى بداخله إلى روما بأجوائها الساحرة وأجوائي معها.

تخيّلتها هي هي تمشي بتبختُرٍ وبغددة، سيلين حُلمي الجميل، جريئ كالملهوف وراءها، ما إن دخلت من بابه الخشبي القديم، حتى وجدتُ المرآة نفسها أمامي مباشرةً، لكن ما إن ألقيتُ بنفسي داخل "هي غابي" اختفَت كالأشباح، قلبي انخلع حين دار طيفها فقط أمامي.

ماذا يفعل الواحد عندما تختفي نجمة بعد زمنٍ من الوقوع في حبها؟! برغم أنّها ما زالت تضيء وهي غائبة، ولو علِمت ذلك لرجعت باكية.

ماذا تريد مني؟

هكذا قلتُ في نفسي عندما لمحت فيدياس يجلس على بار المطعم ويحتسي زجاجة ويسكي من النوع الإسكتلندي، وهي نفس التي كان يرتشف منها في بار الشيخ علي.

وجدتُه يُحادث مدام "جابي" صاحبة المطعم الذي افتتحه زوجها منذُ أكثر من سبعين عامًا، إذ يعتبر أقدم مطعمٍ للبيتزا الإيطالية في الإسكندرية كلها، بل في مصر وما زال يحتفظ بسر خلطاته الذين لا يعرفون كثيرًا من أهل إسكندرية عنه إلا حب عمري يومًا ما.

استدعى قلبي ذكرياتي معها على نفس الطاولة من سنواتٍ عندما

جاءت مدام "جابي" شخصيًا أمامنا بابتسامتها اليونانية المنسحبة لليمين قليلًا، طلب كلٌ منّا نوعًا مختلفًا من البيتزا؛ لنتبادله معًا.

يا لسحر "شي غابي" أو ريتروفو بالإيطالي بمعنى الملتقَى، جعلني أتذكّر حتى البيتزا التي أكلناها معًا.

طلبت هي بيتزا "روكسي" وسط ضحكاتي من أنّه اسم كلب وهي عاشقة للكلاب أصلًا، طلبت أنا "فروتي دي مارية" مع فرايتس وبيبس في زجاجته القديمة جدًا.

أتذكّر عويناتها اللامعتين التي كانت أشهى من زجاجة الويسكي الأغلى في العالم باسم "الملك المقدّس"، الحقيقة أنّ عويناتها هي الملكة المقدّسة عندي ولا سواها.

كانت يداها الصغيرتان الدافئتان تستسلمان لي من بين خجلها الطفولي الحلو الباعث في الروح الأعطاف، وأنا أداعب أناملها المنحوتة من تفاحتها الحمراء التي كانت لا تُفارق حقيبتها أبدًا.

وتحديدًا خنصر أصابع يدها اليسرى، التي تقول بردية فرعونية بأنّ خاتم الزواج نرتديه في خنصر يدنا اليسرى بالذات؛ لإن به شريانًا صغيرًا متصلًا بالقلب مباشرةً دون باقي أصابع اليد، فكلما فركت فيه من الداخل تُصاب بقشعريرة في القلب.

سرقتُ يومها قُبلةً سريعة في قلب يدها مُداعبًا بلساني خطوط يدها التي كانت في اليسار سوى يمينها، لدرجة أنّ لساني شعر بطعم روحها وماؤه الأشهى من خمر ڤيدياس.

عدتُ إلى البار لأجد مدام جابي، جلست بجانبها، لا يمكن أن تتذكّرني من بين عشرات الزائرين على مدار السنين، رحّبت بابتسامتها القديمة فقد كانت لا تزال تحتفظ ببريقهما منذُ لقائي الأول بها.

أين ذهب فيدياس؟

دخل إلى الكازينو، وأشارت إلى زاويةٍ في المكان لأول مرة أكتشفها، دائمًا يا فيدياس تشتاق للاختفاء كأنّه في دمك، تبحث عن ثُقب الإبر لتفرّ منه.

إيه حكايته يا مدام جابي؟

ردّت بلكنةٍ عربيةٍ طوّعتها لغتها إيطالية الأصل: كل فترة بييجي هنا يحكيلي عن لقائه بعشيقته وحبيبة روحه منى.

مثلي أنت يا فيدياس، يبدو أنّنا متشابهان في الحب وفي عشق الإسكندر الأكبر.

وإيه قصة منى دي مدام جابي؟

- قابلها فيدياس في يوم على لسان جليم وهو بيصرخ، كان بيعيّط زي الأطفال.

منى الوحيدة اللي بص لعينيها حس إنّه لقى بنت البحر بيقول إنّها فكّرته بعيون عشيقة الإسكندر الأكبر وزوجته روكسانا.

بس هو كان تحت تأثير الويسكي وتحديدًا زجاجة الملك المقدّس،

لا أخد عنوانها ولا رقمها رغم إنّها طلبت تفضل معاه.

اختفى زي عادته ومشي، ولما فاق دار زي المجنون يدوّر عليها كل ليلة على شواطئ إسكندرية كلها.

- وبعدين؟

- قعد ليالي يرسمها، فشلت كل محاولاته إنه يجمع ملامحها بالظبط، الحاجة الوحيدة اللي كانت بتطلع مظبوط هي عينيها، متعلّش، لوحات كتير وكل مرة عينيها بس، أدمنها بس نقول إيه، الزمن بقى لما يخلّي بنت تجري في دم اللي حبها بجد.

- لكن انتي قولتي إنه قابلها هنا؟

- مظبوط، دارت الأيام وبعد سنين زي عادته جاي عندي يشرب، أول ما دخل لقيت واحدة قامت من مكانها مع واحد كانت قاعدة معاه، سابته وجريت عليه وهو مكانش واخد باله غير وهي بتترمي في حضنه.

- معقولة؟ طب كويس إنّه لقاها.

- لأ مش كويس، فيدياس كان سكران والسكر عند فيدياس ليه أحكامه زي قوانينه اللي محدش يعرفها غير فيدياس نفسه.

بصّوا لبعض ومنطقوش خالص، طبعًا أنا استغربت الموقف، الراجل اللي معاها سابها ومشي، البنت كانت مظلومة، نفسها تلاقي نفسها؛ لإنها وحيدة في الدنيا دي، بس هي حبّته بجد.

قالتله: أنا كل يوم كنت بدور عليك وبعيّط، عبّتلك البحر كلام كتير، متأكدة إنك كنت بتسمعه.

رد فيدياس بعينيه بس، وهو بيتأمّل بإيديه نَحت ملامحها كإنّها أغلى قطعة فنية جت الدنيا دي.

لدرجة إنّه قالي عنها إنّها أهم من تمثال أفروديت إله الجمال، واللي بالمناسبة نحتها النحّات اليوناني العظيم فيدياس، اللي جابه بركليس ملك اليونان في الوقت ده وقالّه:

- عاوزك تنحت أفروديت، واللي كانت بمثابة الإله عندهم.

لكن فيدياس اعترض وقالّه:

- إزاي أنحتها من غير ما اشوفها؟ وطبعًا ده كاكدهن المحرّمات وقتها، بس لإنه بركليس كان بيعتبر فيدياس أهم نحّات عصره وفيلسوفه سمحله يدخل عليها عريانة تمامًا، وتأمّل ملامحها زي ما فيدياس بتاعنا في اسكندرية عمل مع منى لما شافها هنا كده.

بس كان في مشكلة أخطر إنه حتى بعد ما ينحتها مينفعش العامة يعرفوا شكلها، فلإنّه فيدياس مش بس كان نحّات عظيم، كان شاعر كمان وعشق أفروديت وتحديدًا عينيها.

اقترح على الملك بركليس إنه يجمعله أجمل جميلات اليونان كلهم، استغرب بركليس من طلبه، بس وافق بعد ما عرف السبب اللي أقنعه بيه.

- وأقنعه بإيه بقى؟

- تخيّل إنّه هينحت تمثال فيه من كل الجميلات دول مع بعض، وبعد كده يظّن الجميع إنّه تمثال أفروديت خليط من جميلات اليونان، والحقيقة إنه كان عشان ما يعتقدش الناس إنّه التمثال بالكامل لأفروديت فيتغامزوا عليها.

ومن هنا جت نسبة الجمال الكامل أو النسبة الذهبية اللي‌هي بتساوي 1.618، وهي نسبة أبعاد الأشياء على أشكال أبعاد أربعة أو البعد الخفي للروح اللي ما بنشوفهوش، لكن بنحس بيه واللي بتكون مريحة للعين زي لوحات الموناليزا ومنحوتة الجميلة نفرتيتي، حتى الطبيعة مسلمتش من النسبة الذهبية في النباتات زي عباد الشمس وزهرة ديزي الجميلة.

المعلومات دي كلها حكهالي فيدياس اسكندرية، تخيّل!

- وبعدين مكملتيش حكايته مع منى.

- للأسف فيدياس كان عاوز يتأمّل ملامحها، بس لسبب غامض لحد دلوقت محدش يعرفه، سابها وقالها هنتقابل تاني زي ما قابلتك صُدفة أول مرة.

ردت المسكينة عليه: معقولة بعد كل ده نمشي كده بمنتهى السهولة، طب ولما أحب أشوفك ألاقيك فين؟

رد بغرابة: أنا اللي هلاقيكي المرادي، يومها هتعرفي إنه مقبرة

الإسكندر الأكبر اتفتحت عشانك، دا قدرنا يا .....

- إيه، مش عارف اسمي، شوفت؟ كل ده وحتى ما نعرفش اسم بعض، اسمي منى يا سيدي.

بص في عنيها النظرة الأخيرة وقالها: طول ما انتي جنبي مش هعرف افتح قبر الإسكندر، قريب هتعرفي السر يا منى.

بس قبل ما يمشوا سمعت صوتها بيئط من بين الحروف:

- بس أنا انطفيت ياڤيدياس..

قالتها وعينيها كانت مليانة بالدموع اللي متناسبش رقتها في العالم القاسي ده على قلبها، قلب ميعرفش يتلوّن، يمكن ضل طريق الزي الملائكي وهبطت على الأرض.

- هي الشمس بتطفي برضو يا ست بنات الدنيا، انتي شمسي علطول في عيوني منوّرة، عمرك ما انطفيتي بس ممكن تغيبي.

- تغيبي وانا عارف إن هييجي وقت الشروق وتنوّري قلبي من تاني، انتي الوحيدة اللي بستمد طاقتي وقوتي منك، إوعي تقولي انطفيت دي تاني؛ عشان طول ما انتي منورة في قلبي عمرك ما هتنطفي.

- بس أنا حاسة بالانطفاء فعلًا يا ڤيدياس، حاسة إني باهتة، أنا عمري ما حسيت كدا؛ إحساس غريب مخوفني زي ما يكون أول مرة في أي حاجة بتعملها بتكون خايف وقلقان من النتيجة، وانا

مش عارفة نتيجتي هتوديني فين المرادي.

- هتوديكي على قلبي، أنا متأكد.

قالها وهو بيحضن عينيها بنظرة أمان، خلّى نور الشمس ينط من بين ملامحها: أنا بخير طول ما انتي جوايا.

- اللي جوايا دا ورق إسود يا فيدياس، عمرك شوفت كتابة بتظهر على ورق أسود؟!

- بلاش تهلك مشاعرك وفي الآخر الكتابة ونقش مشاعرك مش هيبان، أصل الألوان مبتظهرش جوايا، وانت كلك ألوان جميلة يصعب عليّ ضياعها من غير فايدة.

- لو انت ورق إسود فانا معايا قلم أبيض بيعرف يرسمعلى الإسود كويس، لأ وينحتلك تمثال عمره تلاتلاف سنة كمان وانتي عارفة ده؛ أنا بحب ظلامك وعاوز احُط فيه ألماس.

وزي عادته اختفى.

مدام جابي كانت بالنسبة لابن المقدوني الملكة أسبازيا عشيقة بركليس التي أعطَت لفيدياس أبو النحت الحنان والحب، ده لإنها كانت مثقفة وأنيقة الطِباع ومؤثِرة بالصالونات الثقافية الراعية لها في عصرها.

بالرغم من إن أرسطو كان معلم الإسكندر وفيدياس، بس أسبازيا احتَوته وقرّبته من بركليس حاكم اليونان.

قُمت من مكاني وزُحت ناحية زاوية الكازينو بالمطعم، مكتوب عليه كازينو "رويال"، وفيه هوية صور كلاسيكية لإيطاليا والإسكندرية، بخلاف صور حُكّام مصر من الأسرة المالكة، وإعلانات المشروبات الروحية العتيقة، وقايمة أسعار تعود للخمسينيات فيها سعر المشروب بالصاغ وجزء من فن الفورجيه.

لكنه لم يكُن داخله، رغم أنّ به مدخلًا واحدًا ومخرجه الوحيد هو باب شي جابي نفسه، هل في المكان سرداب سري لا يعلمه إلا ابن المقدوني؟

نظرت إلى ساعة يدي، إنّه ميعادي مع موافي لرؤية الحقيقة بعيني.

* * * * *

6

مَن لم يكفِه العالم، يكفيه قبره الآن.

– الإسكندر الأكبر

في الإسكندرية، أينما ولّيت وجهك، تجد التاريخ حاضرًا بكل عبقه، لكن لو أمعنتَ النظر سترى طبقات الزمن، وتكتشف أنّك في أول الدهليز، وأنّ ما خفيَ كان أعظم.

صباح اليوم التالي لمعركتي مع موافي داخل السرداب، استيقظتُ لأجد غريبًا في سريري، مَن الذي جاء به ودخل إلى حيثُ أنام؟!

وجدتُ تمثال الإسكندر الأكبر الصغير في حضني، كأنّه ابني الذي

جاء على كِبَر نفسي تشتاق إلى الأطفال، لكن مع غير سيلين لا يكون.

سأظلُ أشتاق لها وأحبها حتى آخر نَفَس في عمري، وإنفقدتُ الأمل في لقائي بها مرة أخرى سأتزوجها في الجنة.

أفتقدها كما افتقَدَ فيدياس أفروديت ابنة الملك زيوس، فمنذُ رآها وقلبه لم يرقص لغيرها، قمتُ إلى صندوقها، فقد اتفقت أنا وسيلين أن نكتب الرسائل لبعضنا يوميًا بالتاريخ والساعة، وكل سنة نتبادل الكتابات باليوم.

كتاباتها لا تزال محتفظةً برائحتها رغم مرور كل هذا الزمن، صورنا معًا، كيف أمكن للصور أن تلتقط رائحتي معها؟!

هنا سقط قلبي في كونها في صندوقها الذي صنعته لها من أجمل سديم تاه إلى سماء عويناتها السابعة.

كان لها أن تفتحه يوم غُرسها لتجد الدهشات والقدَر قد أغلق بابه علينا وحدنا، لتفتح الرسالة وراء الرسالة وقد اندفست نبضات قلوبنا في بعضها دفئًا حتى ندَى الصباح.

الرسائل كثيرة والأسرار أكثر، وما في الخطابات لن تجدهإلا فتاتي الملوّنة وحدها من دون باقي البنات.

رؤيتها ستجعل كوني ينفجر مرة أخرى.. بووووم.. لتضحك ساحرة الملامح، فترقص الملائكة على صفحات وجهها.. سبحانه قلبي!

أريد أن ألقي بنفسي داخلها رميًا حرًا كالطوبة أو كالباراشوت.

أخذتُ قطعة الحجارة معي إلى صديق دراستي ودفعتي "د.سعيد العطار" إذ كان يعمل أستاذًا للنحت في كلية الفنون الجميلة بجليم، سأذهب إلى الأتيليه الخاص به؛ علّه يُرشدني إلى أي عصرٍ تنتمي تلك الحجارة العجيبة.

كان الأتيليه الخاص به يبعُد حوالي نصف كيلو مترٍ عن بوابة كلية فنون جميلة بمحاذاة التوروماي.

تنعرج منه إلى شارع جانبي؛ حيثُ بوابة خشبية عتيقةبها رسومات لنحتٍ بارز، أزحتُ الباب للداخل فبدا منه صوت ينبّئني أنّ الباب قد بلغ من العمر أرذله، انفتحت لي طرقة قصيرة منها إلى بهو الأتيليه.

يا للعجب! تملّكتني الدهشة، وجدتُ فيدياس يقف على سقالة خشبية، ليكون بالمقابل إلى رأس تمثال لم أدرِ ماهيته إلا عندما وجدت دكتور سعيد يُوجّه كلامه له قائلًا:

- يا فيدياس، خلي بالك دا تمثال لسعد زغلول هيشارك في معرض فرنسا، عاوز الوش يبقى زي صورة سعد باشا اللي جنبك بالظبط، دي الملامح اللي انا ناحتها، إدّي اللمسة الأخيرة بس وبلاش جنان.

ليرد فيدياس ساخرًا منه:

- وهي فين ملامح سعد باشا زغلول دي؟

- أهو ابتدينا جنان بقى.

- دي صفية زغلول يا سعيد مش سعد حرام عليك.

هنا لم أتمالك نفسي من الضحك، إذ بدا لي أنّ فيدياس هو الأستاذ وسعيد تلميذه.

بلع دكتور سعيد الإهانة ليرحّب بي بحرارة، وربّما ليغطّي على ما فعله فيدياس معه، وليخرج من ورطة أنّه انكشف أمامي بتماثيله التي ينشرها على الفيس بوك وتنهال عليها التعليقات بالفخر والاعتزاز، كأنّه داهية لم يسبق له مثيل.

حقًّا السوشيال ميديا تُظهِر الجانب الحسن من الشخصيات فقط أحيانًا.

قطع حديثنا السيد فيدياس بأن سحب كأسًا منالويسكي موضوعًا على طربوش تمثال سعد باشا زغلول، ليوجّهه مباشرةً إلى وجه الدكتور سعيد قائلًا:

- صُب لي كاس ويسكي يا سعيد.

- بلاش تسكر المرادي أرجوك، التمثال ده أغلى من كل اللي فات.

كأنّ فيدياس لم يستمع لما قاله سعيد إلا بحركة يده وهي ترقص بالكأس أن لا مفر إلا بالويسكي، تدخّلتُ قائلًا:

- إديله يا دكتور سعيد.

رد عليّ قائلًا: أنت تعرفه.

- ومين في اسكندرية كلها ميعرفهوش يا راجل.

ملأ له الكأس، ليرتشفه دفعةً واحدة، واضعًا الكأس فارغًا على طريوش التمثال، وبأزميلٍ صغير للنحت أخرجه من جيبه، محا كل ملامح وجه سعد زغلول التي نحتها أستاذ الفنون الجميلة ورئيس قسم النحت بها، ليصرخ سعيد:

- إيه اللي بتعمله ده يا مجنون، إنت هتيلت ملامحه كلها.

ليرد ڤيدياس بهدوء قائلًا: حرام عليك انت يا سعيد دي شمعة مصر عاوز يتقال إنك روحت بصفية بدل سعد دا حتى عيب يا راجل.

ثم لوّح بالكاس ثانيةً: صُب يا سعيد صُب.

أخذت أنا الكأس وسط ذهول أستاذ النحت وصببته له، تجرّعه مثل المرة الأولى، مُخرجًا من جيبه حوالي سبعة أحجامٍ مختلفة من سكاكين النحت، يُبدّل بينهما مثل جرّاح قلب، يعرف أين تذهب كل نحتةٍ في مكانها المناسب.

أخذ الدكتور ينظر إليه في لهفةٍ وخوفٍ ممّا يفعله ڤيدياس، الذي لم ينظر إلى صورة سعد باشا زغلول التي وضعها له دكتور سعيد؛ حتى لا تهرب ملامحه.

لكنّه يعرف بموهبته الإلهية ما يفعله، رُبّما حفظ ملامحه من تمثال

محمود مختار بمحطة الرمل من كثرة صعوده بجانبه ومخاطبة البشر عن حكاياته بالإسكندر الأكبر وعشيقته روكسانا.

إنّما ما استعجبت منه هو أنّه لا ينحت مثل المعتاد، إذكان يضرب في العيون قبل أن تكتمل لينتقل إلى الشفاه ومنها إلى الجبين ثم إلى الأنف، وهكذا باقي ملامح الوجه بالترتيب، ليكرّر الأمر مرات ومرات.

ولأنّني أرسم بورتريهات أعرف ما يفعله تمامًا، هويختصر وقتًا طويلًا على نفسه من استغراق العين في التركيز؛ ليعود بعين طبيعية إلى الشكل مرة أخرى.

لستَ عاديًا أبدًا يا فيديامس.

انتهى من ملامح سعد زغلول كلها في وقتٍ قصير لدرجة أنّ حديثي مع دكتور سعيد لم ينتهِ، حتى إنّني نسيتُ أمر الحجارة التي كانت في جيبي، ليقطع كل هذا فيديامس قائلًا:

- تعالى يا سعيد هوف رامسه.

هنا أحسّ أستاذ النحت بكامل الإهانة التي بدَت احمرارًا على وجهه، ليقطع دهشته فيديامس مرة أخرى:

- رامس التمثال يا أخي، امسك طربوشه.

لينزل ابن المقدوني من على السقالة في عظمة الملوك، قائلًا:

- الله يرحمك يا سعد باشا، ويرحم طربوشك من إيد سعيد.

تأمّلنا ملامحه لأجده نُسخةً طبق الأصل من الصورة الموضوعة جانبه، لكن دكتور سعيد لم يشكره حتى رغم هذا الإبداع في النحت والإبداع الزمني، لكنه كافأه قائلًا:

- إزازة الويسكي كلها ليك يا فيدياس بيه.

وكأنّ فيدياس مكافأته الشكر لا الشُكر، على كل حالٍ هي وجهات نظر لكلٍّ منّا.

صبّ فيدياس كأسًا آخر بزاوية ليست ببعيدةٍ عنّا، سألت دكتور سعيد عن الحجارة التي وجدتها في السرداب:

- إلى أي عصرٍ تنتمي؟

ليرد:

- دي حجارة، مجرد حجارة يا أخي.

هنا التفت فيدياس كأنّ أحدًا قد داس له على طرف:

- كنت فاكرك عالم في النحت بجد يا سعيد، طلعت أجهل أهل النحت.

ثم نظر لي ممسكًا بالحجارة، متحسّسًا إيّاها، كأنّ بينهما لغةً غريبةً لا يفهمها سواهما، فقط تحسّ به، ليقول:

- دي حجارة من حضارة اليونان، الحجارة بتتكلم، تعرف إنه سقراط الله يرحم دماغه لما دخل على فيدياس لقاه

بيكلم الحجارة، فقاله مجنون انت يا فيدياس بتكلم حجارة؟ فردّ عليه فيدياس بغضب: كنتُ أظنك أعلم أهل الأرض يا سقراط، لكنك أصبحت أجهل أهل الأرض بالنسبة لي.

تخيّل يقول كده لسقراط، مش بس كده دا يعلّمه درس يتكلم عنه سقراط في بداية كتاباته، ويقول: قال فيدياس: إنّ الحجارة تشعر بفن يحنّ إليها؛ لإنها تكلّم الرب وتسبّح له، فكيف لا تشعر بنا؟ ما ينقص الحجارة يا سقراط الروح، هو الكلام الذي لا تفهم لغته إلّا من الشفاه.

لكن اثبت أنّ عندك روح، مش هتقدر غير بالإحساس، فازاي تطلب من الحجارة تثبت لك إنها بتحس بيك، لكن الأعجب إنه عمل زي ما هعمل معاك دلوقتي في عشرين ضربة.

أخذ المخلوق العجيب الحجارة التي كنت أمسك بها من يده في السرداب، وبعشرين ضربة، عددتهم له، نحت ملامحي كما أتى بسعد زغلول باشا، ثم رفع رأسي أمام وجهي متحديًا:

- قولي إيه الفرق اللي بينك وبين الحجارة دي غير الكلام؟!

لم أنطق بكلمة أمامه، فقد انعقد لساني ليقول لي:

- شوفت؟ حتى انت أحيانًا مبتتكلمش، مفيش فرق، إنّها الروح يا عزيزي.

وحين انتهيت من تأمّل ملامحي بيدي، كان فيدياس قد اختفى

"فص ملح وذاب".

أعطاني سعيد أزميلًا متوسط الحجم يستطيع تكسير الحجارة التي زادها الزمن صلابةً بعدما أقنعته أنني أريد أن أجرّب النحت في حجارة إسكندرية القوية.

هامسًا لي: اليونانيون والفراعنة كانوا يعملون أزاميل للنحت من الحجارة؛ لأنّه لا ينحت الحجارة إلا حجارة حادّة مثلها، كحجر الصوان الذي صنع منه الإنسان القديم في مصر آلاته قبل معرفة النحاس.

فالفراعنة والرومان استخدموا حجر الديوريت والبازلت وبعض الجرانيت، أمّا اليونانيون فشيّدوا معبد البارثينون كليًا من حجر البنتيلي.

خرجت من عنده مارًا بمطعم لاتينو على البحر في جليم، فقد تذكّرت آخر لقائي بها هناك، حيثُ البحر وطائر النورس الذي يأتي ليأكل الزلابية من يد أحد العاملين، يقذفها لهم في الهواء ليلتقفوها في سحرٍ غامض قبل أن تسقط في البحر.

يومئذٍ كانت تريد أن تجرّب تلك الحركة، وعاتبتها لماذا لم تفعل ذلك، كنتُ سأكون فخورًا بها وأصوّرها فيديو، لكني أحنُّ إليها في كل نَفَسٍ، مثل مُنى التي يشتاق لها فيدياس.

فكلاهما حلو مثل عجينة سُكّرٍ يلتقطها طائر النورس على البحر؛ فيطير فرحًا من طمأنينة يدها المنحوتة بالتفاح الأحمر.

أصبحنا متشابهين يا فيدياس، هل نحن إخوة في الروح؟ ربّما.

هل تكون بالداخل وألتقي بها بعد كل هذه السنين التي مرّت على قلبي عمرًا بأكمله، اخترقت المطعم حيثُ تلك الطاولة التي لم يتغيّر رقمها كل هذا الوقت، رقم سبعة، لا بُدّ أنها إشارة.

ناديتُ على جرسون قديم بالمكان، ابيَضّ شعره لكن حُبها داخلي ما زال يحتفظ بسحرها الغامض كله بأعماقي، أخرجت له صورتها هامسًا:

- صاحبة الصورة دي بتيجي هنا؟

- أيووووه! سيلين، كانت هنا على نفس الترابيزة دي من دقايق، حتى البيتزا اللي أكلتها قدامك أهيه، أخدت مني العجينة وقعدت تأكّل طيور النورس.

غلبتني دموعي النادرة، وأنقذتني قطعة البيتزا التي تركتها.

الجرسون ينظر لي كمتشرد يلتقط بقايا الطعام، معذور فهو لا يعلم أنّ بقاياها كفيلة أن تملأ كياني للأبد.

يكفي أنّها مَن اختارتها واستطعمتها، يكفي وزيادة أنني شاركتها طعامها كما كنا معًا، ولو لم نلتقِ وجهًا لوجه.

أيووووه يا بحرًا لك مذهب صوفي الملامح، شيخ طريقته، لا يعرفه إلا الراقصون في نسيمه العليل، كطفلٍ يلعب بطائرته الورقية على رمال القلب، فجرى وراء نداهته بتخاطُر الأمواج على صوت فيروز

الهادر.

لم أنتبه أنّ الجارسون لا يزال واقفًا بجانبي إلا وهو يقول لي مُشفقًا:

- تحب أجيب لحضرتك حاجة؟

أخرجت له بقشيشًا كبيرًا اندهش له، قائلًا:

- دا كتير حضرتك مطلبتش حاجة.

- أنا طلبت أغلى حاجة ولقيتها، قطعة البيتزا دي.

آهٍ لو يعرفون ثمنها، فثمن القلوب أغلى من كل ما في الجيوب.

إنّها سيلين، وصفها أنّها لا تُوصَف، تستطيع بكلمةٍ منها أن يرقص قلبي ويتجوّل في قفصه الصدري، بل تستطيع بقدرة أناملها الرقيقة الدقيقة أن تحرّر من كهفي ملايين الفراشات بألوانٍ عجيبة، ويمتلئ الجو برائحة بنفسجها السُكّري.

سحرها الخام كامن في عويناتها الدائرية، مثل: قنبلةبشرية حسّاسة تزن كيلو جراماتها الستين فقط على كوكبنا الأرضي.

المدهش ما فسّره علماء الطبيعة بالأمس أنّ الدقيقة يجب أن تنقص ثانيةً؛ حتى تحافظ الأرض على دورانها في انتظامٍ دون أن يعرفوا السبب.

اليوم عرفت، هذه الظاهرة هي الثانية المفقودة، هي البودو بودو،

هي سيلين.

عليّ أن أجهز عدتي وأدواتي لكسر الجدار حتى أكون في قلب مقبرة الإسكندر الأكبر.

عدتُ إلى بيتي بعمارة الأشرفي، أشعر بالدفء دائمًا والحنين على بوابة الأشرفي، لكن هذه المرة الأمر غريب جدًا.

وجدت عددًا كبيرًا من سيارات الشرطة تحيط المكان،ظننتُ الأمر عاديًا، لكن عندما صعدت إلى الطابق الثالث حيثُ شقتي كانت الأمور هادئة.

دخلت لأطمئن أنّ كل شيء على ما يُرام، كان تمثال الإسكندر الأكبر الأثري ملفوفًا بعمامته المقدونية، نائمًا على السرير وبجواره ورقة.

مَن الذي دخل إلى شقتي مرة ثانية وتركها لم يسرق شيئًا منها؟ ثم إنّ الطمع كله في هذا التمثال صاحب المليون دولار.

فتحت الورقة على الفور لأجد مكتوبًا بها: "مَن اعتنى به اغتنى، ومَن جاء عليه أو أخذ لفافته وتمثاله افترى".

يا الله! إنّها نفس الجملة التي قال لي الشيخ حبيب إنّه وجدها بجوار فيدياس وهو صغير.

*****

7

لأول مرة أسألها: في أي مكانٍ نحن؟

«جزيرة الأشرفي».

سكتنا، رنّت مني، وشوشتني في أذني كأنّني أسمع محّارة خرجت من البحر لتوّها.

أعتقد من صوتها أنها في مثل سني وربّما أصغر، لكن فوران جسدها كان مدويًا، ولا أبالغ إن قلتُ إنّني أستطيع أن أشمّ عصائرها الداخلية من مسافتي تلك، شهوة فواحة.

مزيج من رائحة خميرة الخبز والقرنفل الطازج والرمان، عميقة وحارة، انصهرت معها، شفتاها ناعمتان يلتهماني في استسلامٍ رائع.

أتنفّسها فأشعر بين قدمَيّ بنار المدفأة وقد اشتعلت، غُصت فيها ويكأنّي أسافر خارج المجرة من اللذة أضغط عليها بناري، فتتأوّه من روحها، صرخات فيها مناجاة للكيان والكائن معًا.

أتنشّم جسدها الأملس، فأجد لساني وقد دنا من رقبتها حتى شعرتُ بطعم مسامها، وهو يخرج منها خمرًا مُسكِرًا.

أيُووووه يا بحرا أيّ جِنّيةٍ ألقتها لي، انطلق مني ماء دفق وعميق، فيها خلاص ومسكينة، نمنا معًا على فراش من الكافور والغواية، لا أستطيع الوصف، ليتني روائيًا محترفًا للتعبير عن الطائر الأزرق الذي يرمح داخلي.

صوت سيلين يُناديني من قاع نفسي، ولكن كيف أصف صوتها؟

لو سلّمت بما درست في الجامعة عن الانفجار الكبير، وأنّ الكون بكل تفاصيله ونحن مجرد أصداء لهذا الفعل، فإنّ أصواتنا هي أيضًا أصداء متوالية للصوت الأول الذي صاحب تلك الضربة الكبرى.

أظنُّ أنّ لكل صوتٍ بصمة خاصة، مثل بصمة الإصبع التي لا تُكرّر، يختلف حسب قُربه أو بُعده عن المصدر الأول، الصوت الأول.

هذا صوتها، يأتيني من عمقٍ مجهول، أقف على الحافة المخيفة وأعيش الرجفة الأولى، النغم الأول.

أظنُّ أيضًا أنّ لديّ ملَكةً خاصة تؤهّلني لاستقبال تلك الذبذبة المميزة في صوتها.

لا بُدّ أن تكون بيننا توافقات تؤهّلني لذلك.

يُخيفني الأمر.

أتذكّر أنّني حاولتُ أن أبسّط لها تلك الأفكار في لحظة نزق، وقلت: هكذا خُلِقنا، ضربة وبوم-بوم.

سمعت كلامي عن الضربة الأولى، ومصمصت شفتيها في استغراب:

- ضربة في عقلك، هل كان غضبانًا فيضربنا بالعصا أو يرمينا بالقنابل؟!

بالعكس، كان فرحانًا ويضحك -سبحانه- سقاها الضحكة الأولى.

صوتها ما زال يرنُّ في أذني.

مدهشة هي الروح تستدعي مَن تحب حين تفكّر في الآخر، ما تبحث عنه يبحث عنك، إذًا تلك الحقيقة التي يجهلها كثيرًا من بني آدم.

كانت هي سيلين بصوتها المجنون، ترتدي فستانًا أزرقوقلادة من حجر القمر تتقلّب في بياض الحجر نُتفٌ من ألوان السماء فتُضفي على وجهها لمحةً حالمة.

لا تزال تحافظ على لكنتها الطفولية، ومسحة الجمال اليوناني الذي يتشكّل في عينيها بوضوح.

- أين كنت؟

- وأين تظنني كنت؟ ذرت في بلاد الله أبحث عن رزقي وذاتي.

- أي بلاد؟

- وماذا يهمك أو يهمني من الأسماء، هي بلاد، في كل بلد ناس وأشجار وطيور وشمس وقمر وأرزاق تنتظر أصحابها، بلاد تُشبه بعضها، فلماذا أشغل نفسي بالأسماء؟

الماكرة، وراءها سر لا أستطيع أن أخمّنه، فضّلت أن أهملها قليلًا، وأن أخفي اهتمامي بمعرفة أحوالها، تشاغلت عنها بزجاجة كانت في يدي من الماء.

فما كان منها إلا أن لفّت مزيدًا من السجائر وجلست على السرير أمامي عارية.

كان شباكي المتزّب المستدير يخفّف عتمة الغرفة بومضات بروق وبصيص من ضوء مصباح الشارع، وكانت ظلال فراشات هائمة تسبح على الجُدران.

ووجه سيلين يتبدّل بأكثر من حال في أخلاط النور والظل، وكأنّها معركة أوبرا لفيردي محتمية الوطيس.

تكوين وجهها الغريب يجعلني أراها بأشكالٍ مختلفة، تنتظم قصاقيص ملامحها في وجوه تتبدّل باستمرار، حسب حركة وجهها وزاوية رؤيتي، مع كل لفتة تتغيّر الرؤية.

أرى وجهها من فوق بأجفانه العريضة المثقلة بالرموش، وكأنّها تهُمّ بالغروب وأراها من أسفل امرأة تهُمّ بالشروق تتفتّح في عتمة الرجفة الأولى.

غزّيت عيناها طويلًا وهي تُدخّن، ثم هزّت رأسها، وعاتبتني:

- يبدو أنّك غير مرتاح لعودتي، وأظنّك كنتَ سعيدًا لغيابي، لم تُشغِل خاطرك بي، ولم يهمك أين كنتُ إلّا بعد فوات الأوان.

كنتُ ممدّدًا على ظهري بملابسي أنتظر الإجابة وهي جالسة أمامي تتحسّس ثدييها كأنّه يؤلمها، تجاهلتها طويلًا، وهي قرأت السؤال المعلّق في عيني.. حايلتني، هزّدتني:

- هل تصدّقني؟ عمومًا، لا بُدّ أن أخبرك لكي تعذرني إن غبتُ عنك، الحقيقة أنّ متنا نادتني، نسيت نفسي وتُهت، ذُرتُ في بلاد الله، أطرق الأبواب، وأنام على الأعتاب وحين أتعب أرجع.

- مَن متنا؟

- كيف لا تعرفها؟

- سأخبرك قصتها.

ترفُ ظلال الفراشات حول وجهها وهي تتحسّس ثدييها وتحكي، كان صوتها يختلط بالرعود، يأتي من عُمق الأصداء البعيدة، الأصداء الأولى.

هي متنا كلنا، كانت من أول الدنيا وسط الستات، هائمة ما بين الأرض والسموات كل واحدة على حصانها، هو رجلها وفراش حنانها، وفوقهنّ الأغصان، بلح، وتين ورمان، ومن كل فاكهة السماء ألوان.

تتبختر قوافل الستات وأمامها العرّافات يقرأنَ مسالك النجوم وخلفها البنات، بالدفوف والصاجات.

في يومٍ من الأيام، نام الملائكة من التعب والسهر، وغفلوا عن أمر الأغصان كأنّهم نسوا وطال نسيانهم، وكله كان بالأمر، مع غروب الشمس جاعت متنا وجوعها كان شوقها، جاعت وطال جوعها.

ومرّ يوم بعد يوم، مع شروق الشمس السابعة رأت في مرايا

الأرض بساتين السماء، نزلت بجوعها وشوقها، نزلت وتركت حصانها، وكان نزولها بجوار باب الخلق، خارج الأسوار.

كانت خارج الأسوار خليجًا وزرعًا، أكلت وشكرت، ولما شبعت ثقلت، حاولت أن تعود إلى فوق فوقعت، الروح غلبتها، ثقُل الجسد فامتلأت وقعت، ووقعت، وحصانها ما بين السماء والأرض ينظرها، ويصهل بحزنه عليها، وطال زمانها على الأرض.

تمشي وحولها ذكور الخلائق يُسبِّحون حُسنها، من كل نوع وفرد، حيوان وطير وشجر ومتنا وسطهم طول وعرض، الجلد طيّات ورد، ونظرة العين وعد، والفم إبريق سعد، تقطف من وردها وتُعطيهم وتسقيهم.

وداخل الأسوار كان الطاغي، لا عينه ترى الجمال ولا قلبه يعرف العشق، رجل قبيح، بعين زجاج وقلب حجر ووجه صفيح، لكنّه صاحب جيش وأمر حوله حرس وفي يده جرس، إذا صلصل يركع له البشر.

ذات يوم جاءه جاسوسه بالخبر وأنذره بالخطر دقّت طبول الخوف في القصر، طلع لها بالشر، وحرمها من نفسها، آه يا متنا!

خرج لها من باب الفتوح ساعة مكر، صادها بشباك الغدر، ورجع بها من باب النصر، دار في المدينة بصيده على كل باب، وعند بوابة الموت سلخها حيّةً وتلفّح بجلدها، آه يا متنا!

الشمس كانت ساعة غروب وهم، رسمت على البوابة خيال قتيل

ودم، آه يا ستنا!

الطاغي عاد للقصر وهناك (الواطي) أمن وكان الأمن دقوا المسامير في جلدها المسلوخ، وكسوا به العرش، قعد على الفرش واستكبر (الواطي).

فكرك ستنا سكتت؟ لم تسكت.

قامت له من موتها، مرّ الملائكة وتحيّروا في حاله، رفعوه بكرسيه إلى فوق ووضعوه في المفترق بين جنته وناره، ودخلوا يعرضون أمره على ربه، تركوه ونسوه كأنهم نسوه، وكله كان بالأمر.

وما صلتي بهذا الشيء الذي سيبقى مثل شعاع تائه لنجم ميت؟

أتحسس أعضائي وأفكر.. المسألة تستحق التفكير.

تركتني المجنونة، سحرتني بطلّتها بعدما لفّت ودارت بكيالي، لكنها فتحت كفي وأطبقت في راحة يدي ورقةً ملفوفة، وأحكمت قبضة يدي عليها، رنّت وأرخت سدرها هامسةً:

- اتّبعها لترتوي لا لتشرب، إن صدّقتني وجدتَ نفسك، ارمِ نفسك مثل ستنا في غياهب مقبرة الإسكندر لتراني.. لا تتردّد.

إذا هي ورقة تؤدي إلى طريق خارج باب المقبرة أمام البحر ومرسوم فيها عدد الخطوات من كل جهة.

مشيت سبع خطواتٍ إلى اليسار، وفي كل مشيةٍ أمشيها أشعر أنني أتوه في نفسي، أغوص بقدمي في الرمال، والحقيقة أنني

أغوص فيها في أعماقي، مشيت مثلهم إلى الأمام، حتى شعرت أنّني أقترب من الماء، الأمواج تعلن النفير.

ثم ثلاثون خطوةً جهة اليمين، رأيت زجاجةً مبلّلةً وفي داخلها ماء، لربما كان ماء المطر لستُ أدري، قالت إنّه سيئلّني عن نفسي وعليها، تجرّعته كله.

أنا لا يهمني سوى طريقي إليها، تجرّعته حتى لو كان بداخله سُم، أنا وافقت على اللعبة سأكمل، حتى النهاية.

استفقتُ من هذا الحلم أو الكابوس على أصوات خبطعلى باب شقتي عنيف جدًا، فتحت الباب، فإذا بحسام باشا يقف أمامي ومعه قوة من الشرطة وإذنٌ من النيابة العامة بتفتيش المكان.

سألته عن السبب، أجاب بلهجة حادة:

- في بلاغ إنك بتنقّب عن الآثار تحت العمارة.

وقبل أن أنطق بكلمة كان أحد الذين يقومون بالتفتيش خارجًا بتمثال الإسكندر الصغير قائلًا له: لاقينا ده يباشا.

سألني عنه: جبته منين؟

فكّرت أن أنطق باسم موافي أو فيدياس، لكن أين الدليل على كلامي.

أجبَت: معرفش.

في هذه الأثناء، سمعنا صوت إطلاق نارٍ من مكانٍ ما، أخذني

أحدهم إلى مدخل العمارة، لكن صوت إطلاق النار لا يزال مستمرًا، أجاب البواب أنّه آتٍ من "البدروم".

ليقول له حسام باشا: افتحه.

- دا مقفول من زمن بأمر الحكومة يا باشا.

يا إلهي! ما الذي يحدث في السرداب، لا أريد أن يكتشف أحدهم أمره غيري، لكن في نفس الأمر لا بُدّ أن ألقي بنفسي فيه مهما كان.

توجّهت بجسدي إلى حسام باشا قائلًا: أنا اعرف مكان السرداب اللي تحت يا حسام باشا.

أخذني من يدي إلى "البدروم" وإذا بالسلم الخشبي.

نزل معي ليكتشف الجدار الغامض، أمامي مفأجاة كدتُ أن يُغشَى عليّ حين رأيتها، إنّها الكتلة الصخرية التي أخذتها للدكتور سعيد كانت ملامحي منحوتةً عليها توقيع ڤيدياس.

مَن الذي جاء بها إلى هُنا؟ لا يمكن أن يكون غير ڤيدياس، هكذا قلتُ في قرارة نفسي.

قرأ حسام باشا المكتوب: بالداخل روكسانا.

لكن التوقيع مرة أخرى: ڤيدياس

كان تمثالًا بطول ثلاثة أمتار، وعليه اسم روكسانا باليونانية، أستطيع قراءته، أيّ سحرٍ هذا.

الذي أصابني بالكارثة هو عينا التمثال، إنّهما قطعتي الألماس ولكي، يا إلهي، برديّة بجانب تمثال روكسانا مكتوب بها بحبر قديم.

أنا النحّات الذي هجره تماثيله. وأصبحتُ أتسكّع بين نحت وجهي كبهلوانٍ يُراقص نفسه على مسرحٍ لا ينتمي له أبطاله.

لكنّني سقطت في حُب تمثال أميرة من العصر الإغريقي، لتُخبرني حقيقتي قائلة:

- أنا نحتك المتصدّع الذي يأويك، فأنا منحوتتك التي لا تمل من نحتها أبدًا، ولن تمل من انحناءتها وحفظ تفاصيلها، فأنا أداة نحتك وبعض من قِوى قلبك.

ڤيدياس

فضولي لم يمنعني من أن أتأمّلها، كنتُ أتمشى على ملامحها كفَن يتمشى على طريقٍ كله انحناءات بديعة -سبحان الملك- لستُ أفهم بعد هذا كله أنّ الناس يحبون الأبطال الخارقين، وأنّ انحناءةً واحدةً كفيلةً بأن تقتلني وتخترقني بسهولة، وجعلت من صاحبتها عندي جنيةً أستمدُ منها قوتي.

ظلمتك يا ڤيدياس.

ولن أُخفيك سرًا إن قلتُ لك أنّي لا أفهم ما هو الفن ولا أعرف له تعريفًا.

لكنّها أدهشتني بقراءتي حين قالت روكسانا بعينيها اللامعتين: إنّ

الفن تشويه دقيق في الجمال.

إذ كان في تفاصيل ملامحها جرحًا دقيقًا -مثل الخدشة- على جانب أحد حاجبيها.

تاركةً نُدبةً خفيفةً مع الوقت زادت من جمال بشرتها، وطبعت عليها إثارةً حلوةً في نفسي.

يا الله! حجر من العقيق السيلماني لونه أزرق بلوري، وآخر من حجر القمر يتدلّى بقلادةٍ ذهبيةٍ مُعلّقةٍ على نحت رقبتها لامعتين في أعين المريدين.

يا روكسانا، من أين لك بهذه الأحجار وهي نفسها أيضًاالتي أهديته يومًا ما لسيلين؟ واخترعت خُططًا كثيرةً وبديلةً لإعطائها بعيدًا عن أعين البصاصين -لعنهم الله- هل يكون فيدياس أو موافي سرقها، أم هي صُدفة؟!

حتى إنّ سيلين يومها وضعت حجر القمر في فمي، فعلًا فلكل حجر طاقة ومعرفة، وهبتني القدرة على التنبؤ والتخاطر، لم أكن أصدّق أنّ كل هذا يمكن أن يحدث، لكن سيلين أخبرتني:

- لكل حجرٍ فائدة لا يعرفها إلّا أهل الأسرار، الزمرُد يُبطل عمل السموم، ويفقأ عين الحسود، والراسخون في الروح يُدركون ما لا ندرك، تركوا لنا علاماتٍ نهتدي بها، فخاتم النبي سليمان كان من العقيق السليماني، وخاتم الإمام علي من الحجر الصيني، وعصا موسى من الكوك.

وفسّرت لي:

- الكوك خشب، وليس صخرًا كما يُشاع، أصله من شجرٍ يزرعونه في بلادٍ بعيدةٍ عن هُنا، وفيه من الأسرار ما لا يحيط به إنسان.

يكفي أنّه شقّ البحر وأبطَلَ سحر فرعون لدرجة أنّها أهدتني ذات يوم فنجانًا منقوشًا عليه بالأكريلك سديمًا من النجوم في سمائه الزرقاء، وعليه شِعر الحلّاج:

- والله ما طلعت شمس ولا غربت.. إلّا وحُبك مقرونٌ بأنفاسي.

كان ملفوفًا في صندوقٍ من سحره، أحسب أنّه من الكوك لا يزال يحتفظ بسحر الحب ورائحة أنفاسها.

الغريب أنّ سيلين كلامها أخلاط من تعبيرات غامضة وتشبيهات غريبة متشابكة، تجعلني أتوه بين المعاني، بل أرى للمعنى وجوه أخرى تطلّ عليّ من نافذة عُليا، أرتاح في الحديث معها.

هنا تحسّست القلادة التي على رقبتي، روكسانا هي متنا كما أشارت لي سيلين بالحُلم، سألقي نفسي من أجلنا، والثمن نظرة.

الزمن يحملنا أم نحن مَن يحمل الزمن يا ناس؟!

الأغرب من هذا كله أنّهم وجدوا سلاحي الذي أخذه موافي -أو أغلب الظن هو نفسه ڤيديامس- مُلقًى في السرداب.

الجريمة مكتملة أصبحت شريكه، لكن ڤيديامس يريد إقحامي في أمره،كان الطريق إلى المقبرة ليس ببعيدٍ عليهم.

إذ أخرج حسام باشا مخطوطة ستيليومس، أو رُبّما مخطوطة فيدياس في اتجاه المقبرة التي ضبطوها أثناء تفتيش شقتي.

وجد الخط المستقيم على رقعة الشطرنج الذي أوصلته بيدي في اتجاه الملك، مشينا وسط السراديب التي بدا على البعض خوفهم من رهبة المكان الذي يحيطه تماثيل على الجُدران ونقوشات يونانية وأخرى فرعونية، بل وتماثيل متمركزة في بعض تجاويف الجُدران بالكامل.

وصلنا إلى مكان المقبرة، وجدوا كل شيء مرتبًا.

نظر حسام باشا من الفُوّهة ليجد هذا الشبح الخفي، فيدياس وجهًا لوجه أمامه كمَن ينتظرنا، كان يأخذ شيئًا من المقبرة ثم رحل.

ابتسم حسام باشا.

قبضوا عليّ، مكثتُ في مكتب حسام باشا يستجوبني، لأحكي له القصة من بدايتها إلى نهايتها.

دخل عليه ضابط أثناء وجودي في مكتبه ليقول له:

- اتسرقت يا باشا.

- هي إيه؟

- مقبرة الإسكندر الأكبر.

تأكّد حسام باشا أنّ فيدياس يلعب معه.

اليوم التالي بأكبر الصُحف:

- فيدياس النّحات العاشق الذي سرق مقبرة الإسكندر الأكبر.

بجوارها صورته وهو يقف بجانب تمثال سعد زغلول، يوم أن هتف للناس أنّه الوحيد الذي يعرف مكان قبر الإسكندر.

نزلت بنظري لقراءة التفاصيل داخل الجريدة، فكانت صورة لي صغيرة تُشير إلى التمثال الأثري الذي علِمت من متن الخبر أنّ وزارة الآثار تأكّدت من أثريّته.

لا أفهم ما الذي يحدث؟!

* * * * *

8

في النهاية، عندما ينتهي الأمر كل ما يهُمّ هو ما فعلته.

- الإسكندر الأكبر

غادر حسام باشا مكتبه، فإذا بجيب القميص يتأثّر بسرعة نبض قلبي مُعلنًا وجود شيء يريدني أن أفتحه، تحسّسته فإذا برسالتي الأخيرة لسيلين في غيابها، والتي التقطتها من صندوقها السحري قبل مغادرة شقتي مع الشرطة، بدأت في تملية عيني منه؛ ليؤنسني في وحدتي:

- حلمت بها، كانت مدهشةً ترقص تانجو ببنطالها الأسودالقماشي

الحالم، وهي طفلة في سنواتها السبع الأولى تلفُّ شعرها بمشبك وردي جميل.

تخيلتها جدًا وهي على هذا الحال، فلم أشبع منها حتى في حلمي بعد أن راقصتها بالتانجو مرة أخرى ببيجامتها ذات اللون الأخضر الكرتوني، حتى من لفتها معي ونحن نشبك أيدينا بدلال مغًا في لحظاتٍ ما، كان يحتضنها الزمن والملائكة بيننا في شارع فؤاد.

كنتُ أتابع انحناءات أقدامها على الأرض؛ غمازاتها اويدكنت مشتاقًا لرسم صورةٍ ما داخلها كل ليلة تصحو فيها على حين فجأةٍ منها لعويناتها الفاتنة الواسعة الماكرة؛ ومكرها بالمناسبة حلو؛ لا، بل ساحر لأبعد حد.

أعود لمنامي وهي تجلس معي في سرير العشق، ويدي تُعانق خِصرها المنحوت من مسام ناعمة وكمثرى الجمال، حدوده غمازتان حلوتان كتفاحتها الحمراء التي قضمناها بكرتونية عجيبة يومًا ما من وسطها ونحن نضحك: أنا آفِس يا تفاحة وليس آسف.

وللحق لها عدد من الضحكات أحفظها عن ظهر قلب كألبوم صورها، الذي فتحته لي في منامي في كل مراحل سنواتها الأولى، ويدي تلفُّها كلها بحنانٍ ودلال.

تنُّورتها القصيرة في الإبتدائي الحلوة أم المريلة كحلي، حذاؤها الأسود اللامع في الإعدادي مع تنُّورتها الجميلة، أمّا في الثانوي فكان جسدها الرقيق يستكشف أنواعًا متعددةً من البناطيل الجينز

المختلفة ألوانها، مقلمتها التي كانت لا تخلو من أقلامها الجميلة كخطها الحاضن بعضه.

أتخيّل شدتها على الحروف حتى شطبها الحلو وتسطيرتها الحانية.

محاولة استكشاف صوتها في الغناء أيام الجامعة هو ملاكنا المفضّل "ميم"، الذي لفّ سحره حول حنجرتها، فخلق الله منه بحّتها الأثيرة في قلبي.

أحلى من الكمان التي افتقدتها بشدة، تريد أن تعزف لها ليلة الزفاف: لها ضحكة يا ويلي بلون السهر.

ولم تغب عن ذاكرتي صورتها وهي تحمل حقيبتهالتلك الحقيبة التي تحوي عالمًا كاملًا من ديزني: مارد، وشوشني، وبو.

كيف كان شكل يديها وهي صغيرة يا الله؟!

وماذا عن شعورها أول يوم لها بالابتدائية، لا بل بالحضانة؟!

كأنّني كنتُ رفيقها منذُ زمنٍ بعيد ولم ألتقِ بها إلا في منامي؛ إنها مشكلتي الأزليّة في ترجمتي لبعض الأدب اليوناني، هل هي التي كانت تحلم بالزمن أم الزمن هو الذي كان يحلُم بها؟

ظلها أنا وحبيب عمرها التي تشعر به ولا تراه طوال حياتها، لم أشبع منها ولم أتخيّل أنّني كنتُ سأشبع من ملامحها ونسيم الهواء يُداعبها على المرجيحة التي تحنُ لها، فأقول لها: اثبتي، وألتقطها

بكاميرا لها وحدها.

هي فتاتي الأولى والأخيرة، ثم أرسمها غيبًا كحصة الإملاء التي كانت بارعةً فيها، أنا واثق من أنّ الحروف كانت "توشوشها" بالشكل الصحيح للكلمات.

يا الله! حتى الحروف عشقت يدها، لم أنسَ حُلمها، الفويس أوفر ربّما تحكي قصتي مع الإسكندر يومًا ما، وهنا سأمسكت، فما وراء الروح أكبر من ملايين الوصف داخلي.

بحرية هي؛ حورية يُلامس الشط قدميها، فيغني البحر ويرقص الموج عازفًا لحنًا في قلبي برائحتها المختبئة في صندوقٍ بحري كحدوتي لها عن يوشا والبحر إن كانت تتذكّر أصلًا، حتى إنّني أخاف من فتحه كثيرًا؛ لكي يحافظ لي الزمن على رائحتها البِكر النقية التي عطّرت بها كياني حين أستنشقها.

أستطيع أن أقسم برب الروح وقلبها أنّني تخيّلت طفولة يدها وهي تضغط على زجاجة العطر بعد دلالها لحروفها التي كتبتها لي.

يا لملامحها الجميلة..

أحفظ كل ما فيها حتى مشيتها محفورة في كهف قلبي البعيد بكل شيء.. صدّقوني كل شيء، حتى إنّني قمتُ من نومي وعيوني مغمضة لتتخيّل شكل شفتيها التي خلق الله منها شفاه أسماك النيمو.

انتهى الجواب وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب بالبحث عن فيدياس،

إذ هو الوحيد الموجّه له تُهمة سرقة المقبرة، وما خفي كان أعظم.

أثناء التحقيق معي، ارتطم باب مكتبه: كان ڤيدياس.

قام حسام باشا من كرسيه.

لكن ڤيدياس جلس في الكرسي المقابل لي.

تكلم حسام باشا: فين مكان المقبرة اللي سرقتها؟!

ڤيدياس: مش تسألني أنا كنت فين الفترة دي كلها يا باشا؟

- كنت فين؟

بُص يا حسام باشا، أنا كان عندي مقابلة مع خوفو.

- خوفو مين بلاش حركاتك دي؟

- ما هو أنا مش هنطق بحاجة غير لما تسمع مني الحكاية.

- انجز يا ڤيدياس، مش وقته، الدنيا مقلوبة.

- خوفو يا حسام باشا اللي بنى الهرم الأكبر، وسيط روحاني حضّر لنا روحه.

حسام بسخرية: آآآاه وسيط روحاني، ابتدينا بقى.

أكمل ڤيدياس: لما حضّر خوفو الوسيط الروحاني نفسه مكانش مصدّق، وسأله إزاي بنيت الهرم الأكبر؟

لكن أنا سألته سؤال أهم: إنت ليه بنيت الهرم الأكبر أصلًا؟

ردّ حسام باشا بسخرية: هقولك انا، عشان تكون من‌عجائب الدنيا السبع يا مجنون.

ضحك فيدياس ضحكةً عاليةً ليرد: ما هو مكانش يعرف إنّها هتكون من عجائب الدنيا وقتها يا حسام باشا، ثم إنّه كان في أبو الهول برئو، المهم يا حسام باشا خوفو رد عليّا وقالي:

- تع.....

قاطعه حسام باشا بسخرية:

- رد عليك.. آااه، باينله يوم مش فايت، إنجز.

- قالي تعرف يا فيدياس إنّه هو ده السؤال الأهم فعلًا،كل الناس هدفها تعرف إزاي اتبني الهرم، رغم إنّه مش سر يعني النظريات كتير لكن نظرية فيدياس إنّه الهرم ده اتصب صب، كتلة صخرية كاملة جت عن طريق النيل واتنحتت، أو يمكن صبّوه.

بس ده مش موضوعنا يا حسام باشا، الموضوع الأكبر إن خوفو قالي: إنّه بناه عشان حب واحدة من عامة الشعب قابلها، شاف عينيها، سحرته دوّخته، لدرجة إنها فضلت سحراه بروحها، جذبته للمكان ده.

فقرّر يبني الهرم عشان يبقى مكان تلاقي الروح بتاعته معاها حتى بعد الموت، حتى شوف كده الرهبة لما تدخل الهرم ده بالذات دونًا عن باقي الأهرامات، أهو روكسانا شدّتني للسراديب دي زي خوفو

وعشيقته بالظبط.

وأجيلك للأهم بقى يا حسام باشا، عرفت إن روكساناحقيقية، اتأكدت أني مش مجنون؟

رد حسام باشا: فين مقبرة الإسكندر يا ڤيدياس؟

- لأ يا حسام باشا مش هتكلم كده غير في حضور المحامية بتاعتي.

- وهي فين دي يا سيدي، بقى ڤيدياس ليه محامية.

- أيوه طبعًا، إزازة الويسكي.

- عاوزني أجبلك ويسكي هنا، إنت مجنون يا حضرت النحّات؟

أخرج ڤيدياس من جيبه زجاجة الملك المقدّس، كان قد تبقّى منها رشفة واحدة سحبها جرعةً واحدةً قائلًا:

- أهي حضرت من نفسها يا حضرت الباشا.

وضعها على مكتب حسام باشا.

حزّزها من ضمن اللي لقيتوه وأنا اقولك، أنا وعدتك وخليك فاكر يا حسام باشا، أنا اللي جيتلك هنا برجلي، وهخليك أشهر رئيس مباحث في الدنيا دي.

- الدنيا مقلوبة عليك وعلى المقبرة، وانت جاي تهزر؟

يا حسام باشا خلي القانون ياخد مجراه، مش هنطق بكلمة غير

قدام القاضي.

- ماشي يا فيدياس، هخلي القانون ياخد مجراه.

دخلنا إلى التخشيبة معًا، لكن ما إن دخل على أهل السوابق حتى قاموا يعطونه التحية كنصف إله مثل آمون.

منهم مَن أخرج من مكانٍ ما لُفافة حشيش يُلقي بها عليه، والآخر قد أعدّ له مكانًا مفروشًا يليق بأمير مملكتهم، ليشير له بالجلوس قُربه.

جاء الصباح عليّ، فُتِحت التخشيبة مناديًا الشاويش على اسمي، ظننتُ أنها الانفراجة، لكن تبدّدت شكوكي إذ قال: زيارة.

وأعطاني لُفافةً فيها تفاح أحمر، وبداخل تفاحة منها فتحة ملفوفٌ بها ورقة، أخرجتها على عجل من قلبي ولهفة من عمري.

إنه خطُّها، الرسائل لا تزال تخطف القلب بعيدًا ولو بيننا ألف سجن، إنّ في حروفها ليس كلامًا ومشاعر فقط، بل ما وراءه أكبر من ذلك، لحنٌ غامض، ما أحلى الخطابات في زمنٍ تشابهت فيه الكلمات والمعاني.

تذكر انك حملت رواية فيدياس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

ستنا جاتلي في المنام وقالتلي إنك رميت نفسك عشاني، سيلين.

يا الله! إنّها حبيبة عمري، عرفت أنّهم قبضوا عليّ، لا بُدّ أنّها الصحافة التي لا ترحم، لا يهُم، المهم أن تكون هي، هل يمكن أن يكون هو اللقاء المؤجّل كل هذه السنين؟ هذا ما أردتُ من البداية.

أعطيتُ واحدةً إلى فيديامس ليتأمّل تلك التفاحة الحمراء، لم يأكلها.

ظلّ يتأمّلها وأنا ألتهمها بطفولةٍ عجيبة، أمسك فيديامس تلك التفاحة، وبإشارةٍ واحدة منه لأحدهم الرابض في ركن التخشيبة، أعطاه ما يُشبه سكينًا بلاستيكيًا.

ثم بدأ بالنحت عليها حتى أتى بملامح الإسكندر الأكبر ليبدأ بالتحدث إليه:

- أيُها الملك، لماذا أغرقت مدينتك في قلبي؟ يا ذا القرنين، اجعل لي من حجارتك لينًا، ومن مشاعرها لغة تحنُ إليها الأفئدة.

يا شهوة النحّاتين في القطع من عدم، يا خالق سر الإسكندرية من صنم، يا واهب فيها من روحك العظمة!

ثم قضمها من كل الجوانب، كأنّها ترنيمة تدخل في كيانه، رُبّما يملؤها كلام مثلما كانت تفعل حبيبته منى.

أعطيته واحدةً أخرى، لكنّه نظر لي في دهشة، وظلّ يتأمّلها، أثارت داخلي سؤالًا له:

- إيه السر بينك وبين التفاح؟

كأنّما غُصت بسؤالي في مراديبه الداخلية ليرد:

- التفاحة دي هي سر الأسرار، مش هي اللي خرجت آدممن الجنة بغواية، وهي اللي قالت لنيوتن سر الجاذبية؟

- أنت عالم بقى وفيلسوف.

- التأمل، التأمل هو كل حاجة، حتى الإله عرفناه بالتأمل، تعرف إنّه نيوتن التفاحة كلمته غوته زي ما غوت آدم وحوا؟!

- إزاي الكلام ده؟ هي التفاحة بتتكلم؟

- طبعًا، إنت لسه عندك شك، إنت متعرفش حاجة عن نيوتن.

- طيب عرّفني.

- تعرف إنّه نيوتن مكانش بيحب التفاح أصلًا، حبّه كلهكان في الكُمترى، اليوم ده خرج من البيت مضايق، كان متخانق مع مراته، فراح تحت شجرة تفاح، وهو مهموم لقى تفاحة وقعت على راسه.

قاطعت كلامه:

- أيوه عشان كده اكتشف الجاذبية.

- حمار، مش بقولك متعرفش حاجة، نيوتن لما وقعت على راسه التفاحة استغرب جدًا، فرفعها لفوق تاني؛ لأنه ظن إنه الجن هو اللي وقّع التفاح على دماغه، وكل ما تفاحة يرفعها تاني يلاقي التفاح

ينزل على دماغه أكتر.

راح لكاهن في كهف، وقاله قول للجن بلاش يعمل الحركات دي معايا، سابه الكاهن ودخل في ركن خاص بيه جوه الكهف يكلّم الجن عشان يبعده عنه، وغاب فترة، ونيوتن مستنيه.

طلع الكاهن وقاله: يا نيوتن، الجن بيقولك إنه مالوش علاقة بالتفاح أبدًا، وإنه اللي بيعمل كده قُوى خفية بتشد كل حاجة لباطن الأرض.

خرج نيوتن من عند الكاهن لمكان شجرة التفاح، وقعد يكلّم التفاحة، إيه القُوى الخفية اللي بتشدّك ليا.

كان بينهم لغة مش مفهومة، غير إنّها انفرطت من إيده على الأرض، قام نيوتن وقف قدام البحر وسأل نفسه: ليه القُوى الخفية دي مبتشدّش البحر للأرض؟ مالقاش جواب.

غير إنّه قام وحفر حفرة غويطة أوي، ونزل فيها وكل ما يحفر ينزل أكتر.

اكتشف نيوتن السر الأعظم، إنّه السبب هو التفاحة نفسها اللي نزّلت آدم وحوّا من الجنة، وخلّت كل حاجة تنزل بقُوى خفية لحد لما نطلع تاني فوق وتنتهي الغواية.

ومن هنا قال قوانينه اللي هيفهمها العالم من غير فلسفته.

- وانت عرفت القصة دي منين يا فيديلس؟

- لاقيتها على جدار معبد في سرداب شارع فؤاد، ابقى انزل ودوّر،

صدّقني مش هتلاقيها.

لم أنتبه إلا على صوت المحبوسين معنا في التخشيبة، وهم يضحكون ثم يصفقون بحرارة في مشهد سريالي عبثي بامتياز، لأجد روحي تضحك معهم بصوت عالٍ.

ثم أخرج فيدياس من جيبه كوتشينة عليها نقوش يونانية من الظهر؛ سحبها مُخرجًا منها أربع ورقات للشايب، أفردهم أمامنا بخفة وغاص بنظره فينا بعُمقٍ هاتفًا: فين الإسكندر يا مساجين؟ وليكم حرية الروح لدقايق.

رد واحد في صعلقة عجيبة: كلهم واحد يا أبو فيدياس.

صفعه ابن المقدوني صفعة خادمٍ في بلاط مملكته شارحًا له:

ده ملك السباتي ♣ - King of clubs

الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا وقائد واحدة من أكبر وأقوى إمبراطوريات العالم القديم.. الملك دا جوه اللعبة بيرمز للولاء التام والشلطة.

أمّا ملك البستوني ♠ - King of spades

الملك دايفيد (داود) تاني ملك يحكم مملكة إسرائيل 1010 قبل الميلاد،كلمة spade بمعنى نصل أو سيف، ودا عشان حادثة قتله الشهيرة بجالوت.. الملك دا جوه اللعبة بيرمز للحزم والقوة؛ لإنه كان حاكم قوانينه صارمة

ثم ملك القلوب ♥ - King of hearts

تشارلز السابع ملك فرنسا، اللي أشيع عنه إنه اتجنّن، فمسك السيف بتاعه وقام بغرزه بقوة في دماغه فمات، وعشان كده بيطلَق على الورقة دي لفظ "الملك المنتحر" والرسمة نفسها لشخص ماسك سيف في دماغه.. وهو الملك الوحيد في الأربعة بدون شنب.

والأخير ملك الديناري أو ملك الماس ♦ - King of diamonds

أشهر حاكم في التاريخ وهو يوليوس قيصر حاكم الإمبراطورية الرومانية، وعشان مدى إعجابه وغروره بنفسه، هو الشخصية الوحيدة اللي مرسومة بعين واحدة بس.

رد صعلوق آخر: واحنا اللي فكّرناهم واحدا عرفتهم ازاي يا أبو إسكندر؟

- البلد الوحيدة اللي بتسميهم بأساميهم فرنسا؛ لإنها الأقدم في الحكاية دي.

- وانت سافرت فرنسا يا فيديامس.

- طبعًا سافرت من سرداب لفرنسا، ورجعت طوّالي يا روح أمك.

هكذا هو فيديامس يُدهشك للدهشة، يرميك في أتون مملكته فتثق أنّه بحرًا ليس له قرار، هو الخيط الرفيع بين النقيضين، فلا هو مجنون ولا عاقل ولا إنسي ولا جني، هو خليط من عالمٍ قديمٍ بين ما قبل التاريخ وما بعده.

9

الحب الحقيقي ليس له نهاية سعيدة أبدًا؛ لأنّه لا نهاية للحب الحقيقي.

- الإسكندر الأكبر

يوم المحاكمة

وقفنا أنا وڤيدياس داخل القفص، ظلّ ڤيدياس ينظر في كل الاتجاهات كأنّه يبحث عن شيءٍ ما لم أتبيّنه.

بعد أن دخل جميع الحضور، شعرت بأنّه كان تائهًا تمامًا، لم أعهده مثل ذلك من قبل، لأول مرة أشعر أنّ ڤيدياس طفل كبير.

- محكمة.

هكذا زعق الحاجب في لهجةٍ آمِرة، بأنّ المحكمة الموقّرةوالقُضاة الأجلّاء سيجلسون على منصة العدل والحق.

قام الجميع باحترامٍ وشموخٍ لمن يلقون كلمة الله في الأرض، مثلما كنا نفعلها صغارًا في المدرسة لمعلمينا.

نطق القاضي اسمي لأرد عليه بـ"نعم". مُثبتًا حضوري.

في نفس اللحظة التي نطق بها اسم ڤيدياس، دخلت الفتاة التي عاش ڤيدياس طوال حياته لأجلها، فما قبلها لم يُحسَب عمرًا من الأصل بالنسبة له.

شعرت أنّ شيئًا يخلعه من قلبه، يُزلزل كيانه، لدرجةأنّ نبضات قلبه أصابته برعشةٍ ورهبةٍ معًا، بالكاد خرجت حروفها الثلاثة من فمه كمولودٍ يتحسّس صندوق الأبجدية من حُلمٍ بعيد:

- مُنى.

صدق وعده عندما قال لها في شي غلبي:

- إنتِ اللي هتلاقيني المرادي.

جرّت عليه خائفةً تترقّب، تلاقت عيناهما في نهَمٍ ونغَمٍشديدين، لكن لسببٍ غامضٍ في قلبي شعرت أنّها تُشبه سيلين إلى حدٍّ كبير، رُبّما كانت خيالات من قلة نومي وهفقان قلبي لها.

نادى القاضي في لهجةٍ نافذة: ڤيدياس.

دون أن ينظر للقاضي قال في عينيها: أنا موجود.

بدأت وقائع الجلسة التي تتابعها أهم الوسائل الإعلامية، لكن وقائع أهم تدور جانبي بين ڤيدياس ومنى.

منى: إنت صحيح سرقت مقبرة الإسكندر الأكبر يا مجنون؟

ڤيدياس: كل حاجة هتعرفيها كمان شوية.

منى: أنا بقيت محامية، وده كارنيه النقابة بتاعي، أنا اللي هدافع عنك.

ڤيدياس: تدافعي عن مين يا مجنونة، إنتي هتدخلي التاريخ

دلوقتي، إنتي براءتي وتُهمتي.

منى: براءتك وتُهمتك، إزاي؟

فيدياس: سيبك من القانون اللي درستيه، دلوقتي هتعرفي قانون فيدياس.

منى: وإيه هو قانون فيدياس ده يا سيدي اللي هيديك براءة؟

فيدياس: عنيكي يا منى.

لم تتمالك نفسها من الاهتياق له، إذ بدا في تشابك أصابعها في أصابع فيدياس بقوة.

القاضي: يا فيدياس، هل سرقت مقبرة الإسكندر الأكبر؟

فيدياس: أيوه، أنا اللي اكتشفتها.

سأله القاضي عن علاقته بي، ليرد فيدياس:

- أنا اللي نزّلته السرداب، كان حِلمه يشوف مقبرة الإسكندر زي الأطفال.

ثم نظر لي قائلًا بوشوشة تهتز لها القلوب:

- حلمك كان إنك تشوفها زيي صح؟!

- وانت عرفت منين؟

- بُص هناك.

وأشار لي في نهاية القاعة.

- يا إلهي! كانت هي.. حبيبتي، فعلت مثلما فعلت منى.

أنت إليّ جريًا لتسكن بعيني، قرأني المجنون، الآن فهمت بداية الخيط.. فيدياس استغلني وساعدني.

سألته: بس ازاي عرفت حكايتها؟

- الوسيط اللي كان بينك وبين موافي، صديقك اليوناني، حكى لي كل حاجة، ده مش عشان حاجة غير إنه كان نفسك تهديه لحبيبتك؛ عشان تخلّدها معاك للأبد.

لكن هقولك على السر الأهم اللي خلاني أساعدك؛ لإن ميلين تبقى توأم منى.

يبقى انت موافي، وظني صحيح.. روحِك يا ميلين انقسمت بينك وبين منى.

- نظر إليّ وضحك قائلًا: إنت لسه فاكر.

- طب وتمثال روكسانا، خبير الآثار بيقول إنه عمره أربعتلاف سنة.

ضحك فيدياس ضحكةً عاليةً لم أفهم مغزاها، إلا حينما عرض القاضي التمثال في ساحة المحاكمة.

الجميع يتأمل هذه العظمة التي تمّ صبها بأجزاء من الذهب.

إنهما عوينات الماس التي كنت أمتلكهما، لكن الأدهش كله أنّ روكسانا هي منى.

نظرت إليه ثم قالت: دي أنا، أنا براءتك، هقول للقاضي ونطلع سوا.

- إنتي مجنونة، اسكتي هتبوظي كل حاجة.

- عملت كده ليه؟!

- عشان أخلّدك، أشوفك، انتي الوحيدة اللي كسرتي قانون فيدياس، عينيكي دول يستاهلوا الألماس اللي فيهم.

- سأله القاضي: تمثال الإسكندر الأكبر الصغير مِلكك؟

- أيوه ملكي يا حضرت القاضي.

- الخبير بيقول إن عمره أربعتلاف سنة.

ما يقول يا حضرة القاضي، لكن أنا اللي نحتّه.

- إيه دليلك؟

- الدليل هو حسام باشا، لو تسمح أكلمه؟

سمح له القاضي بالتحدّث إلى الضابط حسام.

- أنا داخلي إيه يا مجنون في الموضوع؟ ارحمني يا فيدياس وحِل مشاكلك مع التاريخ.

- مش وعدتك تبقى أشهر رئيس مباحث؟ فاكر إزازة الويسكي

اللي قولتلك حزّرها؛ فاكرها؟

- أيوه فاكرها طبعًا.

- الدليل هي الإزازة يا حسام باشا، اكسر التمثال هتلاقيه في قلبها، اكسره من عند القلب بالظبط هتلاقي فتحة صغيرة، اكسرها.

- ازاي أكسره، وافرض كسرته ومالقتهاش، أجي أقف جوه معاك بقى.

- أنا عندكم يا حسام باشا، ومفيش مجال للتفكير.

طلب فيدياس من القاضي تكسير جزء من ظهر التمثال؛ لإثبات براءته، وأنّ مَن يعرف مكان الشيء الذي خبّأه فيدياس داخله هو حسام باشا.

استغرب جميع مَن بالقاعة، فإذا به يأمر بتكسير عمق خمسة سنتيمترات فقط من التمثال.

قام حسام باشا بسحب أزميل وضرب مكان القلب، مثلما أشار له فيدياس.

كانت المفاجأة نفس زجاجة الويسكي Absense، نظر الجميع إلى يد حسام باشا، كانا متشابهين، لا تكاد تشعر أنهما متطابقين

أكاد أجنّ لما يحدث من هذا، فيدياس يمتلك الخلطة السرية وهي خلطة من الأحماض القوية تجعل التمثال بعد نحته عمره حوالي أربعة آلاف سنة.

أمسك فيدياس بيد منى، وهو يقول لها: اسمعي.

بدأ القاضي ينطق: حكمت المحكمة حضوريًا على فيدياس بسنة مع إيقاف التنفيذ بتهمة التنقيب عن آثار دون ترخيص، وغرامة قدرها عشرة آلاف جنيه.

كادت تبكي، لكن فيدياس بدأ يُشير بحركة يديه لتستمع أكثر ليكمل القاضي حيثيات حُكمه قائلًا:

- مع وضع تمثال روكسانا داخل متحف الإسكندرية؛ حيثُ قِبلة السائحين.

ها هي منى وفيدياس يقفان أمام تمثال "روكسانا"، التي جاءت الدنيا كلها لتشاهد عشيقة الإسكندر.

وحسام باشا أصبح رجل المانشيتات، الضابط الذي فجّر الحقيقة بزجاجة الويسكي.

بقيت أنا منتظرًا لسيلين، أبحث عنها بين العيون والوجوه، لكنّها لم تأتِ.

اقتربت من منى أكثر؛ علّها تتأنى على توأمتها التي حيّرتني، لكني أحبها بكل ما فيها من غموض ودلال، لتخبرني قائلة:

- سيلين سابت لك الرسالة دي معايا.

فتحت الرسالة التي كتبتها الحالمة العابثة بي كما يحلو لها، كأنّني لعبة بيديها، وما أحلاها وهي تُداعبني، كانت تلك الحروف

الأمازيغية في الرسالة وتعني بالعربية:

أنتظرك في معبد التنبؤات بسيوة،

الخاتم الذي وجدته في يدك سيقودك.

سيلين.

التفت ورائي باحثًا عن منى، لكنّها اتخذت سبيلها مع فيدياس في القلب سريًا.

* * * * *

10

ألا يوجد المزيد من العوالم التي قد أغزوها؟

- الإسكندر الأكبر

الساعة الآن 11:11 صباحًا

هبط قلبي إلى سيوة قبل جسدي الذي تجرّه سيلين وراءها كجيش "قمبيز" المفقود هنا، والذي أرسله الملك الفارسي "قمبيز" عام 525 قبل الميلاد لهدم المعبد.

حتى يثبت للمصريين والإغريق فساد عقيدتهم تجاه الوحي والنبوءة التي ارتبطت بالمعبد. إلا أنّ أغرب ما في الأمر والذي ظلّ لغزًا محيرًا إلى اليوم، أنّ جيش "قمبيز" فُقِدَ بالكامل بعد أن غادر الواحة متجهًا نحو واحة سيوة.

وتذكُر السجلات التاريخية أنّ الجيش ظهر تحت رمال الصحراء؛ بسبب رياح عنيفة.

هنا على مسافة أربعة كيلو مترات شرق مدينة سيوةالحالية، على مقربةٍ من معبد التنبؤات، يقع معبد "آمون"، الذي يعود تاريخه إلى الأسرة الحاكمة الثلاثين.

حيثُ يُقال بأنّ العرّاف اليوناني الشهير "آمون" كان يعيش فيه.

وقد توجّه إليه الإسكندر الأكبر مباشرةً بعد وصوله إلى مصر للمرة الأولى في عام 331 قبل الميلاد.

حيثُ يعتقد الكثيرون أنّ القائد المقدوني قد سأل عرّاف المعبد عمّا إذا كان "سيحكم العالم"، وكانت إجابة الكاهن "نعم، ولكن ليس لفترة طويلة".

دخلت إلى قلب معبد التنبؤات متأمّلًا الخاتم الذهبي الذي وجدته بسرداب النبي دانيال، فإذا به نقاط منقوشة عن المكان، ماذا تريدين مني يا سيلين؟!

جلستُ على الأرض في مقبرة لعائلة الملك "أزران" إله المطر عن الأمازيغ.. أرسم تمثالًا لفارس يتصدّر مائدة الموتى.. يتصدّر قبره (بيت الأبدية).

كان غموض المكان يُشعل رياح أيامي في خلواتي.. يملؤني عشقًا سحريًا كأعمق ما يكون العشق.

يا إله الأرض والسموات! إنّه نفس المكان الذي رأيته في السراب، تاهت الحقيقة مع الحُلم، لكنني أمامه مرة أخرى، الزمن يحملنا يا عزيزتي!

مقبرة تحت الأرض، لها أبواب وأعمدة شاهقة، من سحرها تظنُّ أنها همزة وصل بين الأرض والسماء السابعة، عند نزول الدرجات ثمّة واجهة مؤلّفة من محرابين.

في أعلاهما شكل صدفي، وتحتهما لوحتان تمثّلان مائدة موتى بين أفراد من عائلتهم، وإلى اليمين إيوان مسقوف ينتهي بمصطبة الأسرة الجنائزية، التي يبدو عليها سدنة المعبد يحضرون الحفلة الجنائزية وبأيديهم أوعية الشراب، وفي الجدارين الجانبيين فتحات جنائزية مُغطّاة بلوحات حجرية عليها صورة نافرة للموتى، ويزيّن أعلى الدعائم زهرات نافرة.

هذه اللوحات الحجرية، صورة نصفية أمامية لفتاة ملائكية، تبدو ابتسامتها إلهية ومتدثّرة بثوبٍ تعلوه قلنسوة تبرز منها يدها اليمنى، أنفها مستقيم، وحاجباها طويلان، وعيناها واسعتان، وينسدل شعرها الكيرلي إلى جهة الأمام فيغطّي أعلى جبهتها، وتعبّر ملامح وجهها عن تعابير آثرة.

وأنا أحلّق في ملكوت سحر المكان شعرت بروحٍ تنساب إلى جسدي، كانت فتاةً تُضاهي بسحرها سحر المكان.. تتقمّص كل معاني العشق الأبدي في دائرية عوينائها التائهة.

وكأنّ قدرنا أن نلتقي في هذا المكان.. في بيت الأبدية،وكأنها مُهاجِر غير شرعي قادم من زمنٍ لم يكتب عنه مؤرخون.

كنتُ متيمًا بتفاصيل غموضها، كل تفاصيل المكان تبهت حين أتأملها.. وكأني في عشق أبدي رغم تحصُني ضد صدمات الحب.

لكن الغريب أنّ حضورها البهي يتبدّد كلما استحضرته خارج المقبرة.. لماذا لا أراها إلا في هذا المكان؟ نتحدّث ساعات طويلة.. وحين أفرغ من الرسم وأغادر المكان تختفي.

سنوات وأنا أعشق هذه الفتاة الغامضة، التي تختفي دون منطق، إلى أن بدأت أبحث عن سر ظهور الفتاة التي عشقتها في المقبرة واختفائها حين أغادر.

بقيتُ ثلاثة أيام وأنا غارق في بحور أمهات الكتب والمراجع؛ علّني أعرف شيئًا عن صاحبة التمثال الذي أعشق رسمه.

وفجأةً ضعِفت لما توصّلت إليه عن الفتاة، التي عاشت في القرن الثاني الميلادي تقريبًا.

تُدعَى "تيلست".. ومعنى اسمها هو الروح التي ترتدي عباءة جسدٍ عاشق، وتسافر عبر الزمن لتعشق من جديد.

أدخلتني إلى عوالمها، أصبحت أحفظ حتى شكل مسام يديها وهي تغضُ به الطرف مني على جبينها؛ خجلًا من نظرات عويناتي المتشردة في ملامحها.

تمنّيت لو تصير معي مدى الحياة نتجاذب اللمسات بما تبقى من رحيق تشابهنا المدهش.

أن ترتدي خاتمي في ولَو غير مبرّر لرقصات زوايا بيتها وبكاء أمها الذائب في ملح الأيام، وهي تُداعب خوفي على ابنتها المحبّبة لانبساط قلبي لوجودها بجانب رفيق حياتها.

أخاف من غيرتي عليها أن تحرقني، وهي لا تمانع في ذلك حين تفعله أمام عيني، فأغمض كلماتي في دفتري المسكين غير متحمل لقلمي وهو يكتب، فأضعه كاسرًا بخاطر حبره الذي يشفق عليّ!

لكنني أعود، فأشتاق إلى لمسة يدها بعد ميلاد طفلتنا الحالمة التي تطلّ على عالمنا بسيمفونية على سوناتا القدر لموزارت، صرخة تُطهّر كل أوجاعنا التي عشناها في حبنا، الذي جزّيته مارجريتا في رواية "أرى الشمس".

ننزل إلى الجنة المفقودة في واحتنا المثيرة، فتحصدمعي جوائزي وتكتب مثلما أكتب، وتصوّر لحظاتي المفقودة في حفلات توقيعي ممسكًا يديها الحية بوعود صياد في شباكه، كل ما يعجز آمال البحار أن يلقف أسماك النيمو لتزيّن بيته.

لكن هذا ما ليس يضمنه أحد غير سمكة النيمو نفسها!

هدأت الصحراء، وسكنت الطبيعة في عيون الأمازيغية المدهشة، إنها "سيلين" تجلّت أمامي ببهائها الجليل.

على الهامش أحببتها، وسيلين ليست من الجميلات التي تشكك مرة

واحدة، بل هي من الجمال الأخّاذ الذي يتقاطر في قلبك نقطةً نقطة كلما أدركت فيها قمة ساحرة تكتشف في القطرة التالية قمة أخرى أشد سحرًا من الأولى.

هي سراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل وجد عشق "سيلين" عنده، فوفاه حب إلهي ملحمي البطولات كأجدادها الأوائل.

- هذه بحيرة الأمنيات يا رفيقي، فاغترف منها غرفةً رقيقةً دون أن تجرح الماء، وتمنّ ما يحلو لك.

هكذا تكلمت، لم أصدّقها إلا وهي تكشف عن ساقيها، بلقيس هي في أفعالها وجنانها المألوف، رُحتُ أتأمّل في أقدامها الجميلة، أحسست بها يوم أن احتوتنا حفرتها في ثلجٍ سحيق.

ساقاها أدخلتني الجنة متأملًا شكل الحور العين، كواعبها أترابًا والماء يُلاعبها متخلّلًا ما بين أصابعها النونو، كأنها أنهار من عسل مُصفًى.

هذه سيلين على هامش غيوم القطن التي أطير معها فيها، معصرة من المشاعر الغامضة التي تستشعرها، فقط تستشعرها إذا ما لاحت لك انحناءات الروح في قلب تاريخ قيس وليلى.

أعطتني رسالةً في يدي، ضغطت على يدها مستمسكًا بحبل وريدها ألّا ترحل مرة أخرى.

أحسّت العرّافة بما في عيني قائلة: متقلقش، استناني هنا بُكره

في نفس الوقت، هتشوف كهف الجنة المفقودة.

كان عليّ أن أصدقها، فتحت رسالتها بلهفة الأطفال ومذاجة الكبار.

مساء الخير يا "عزيزي"..

كيف حالك؟

كان يومي طويلًا جدًا مثل روحك، كاد يقتلني الضجر ذكرتُك وقلتُ لنفسي أن ليتك تملك جناحين صغيرين، وكنت في حجم "تينكر بل" لأطير على جناح قلبك.

جنيّة "بيتر بان" الناصحة الصدوقة، كنت لتصحبني في كل مكان من دون أن يلحظ وجودك أحد، وكنت لتخفّف عني شيئًا من ثقل اللحظات، وسماجة الدقائق والساعات، وإن حصل وتعبت من الطيران؛ فقد وجدت لك مكانًا تلتقط أنفاسك فيه، حيث تلك الوهدة اللطيفة عند مُلتقى عظمة الترقوة بأصل العُنق، قِبلتك التي تنعش الشهوة والدموية معًا.

هكذا كلما مددتُ أصابعي لأعبث بقلادتي وجدتك، وكلما ملت برأسي حزنًا أو همًا أو استغراقًا في التفكير؛ سهُل عليك تسلُق رقبتي صعودًا، وهمست لي وشاركتني همومي وأفكاري.

وإن حصل وأصابك السأم؛ فبإمكانك أن تتخذ من قلادتي أرجوحة.

امممم.. أوتدري ما هو أفضل بعد؟

اسمع، تصنع ثقبًا صغيرًا عند حبل وريدي بينما أنا ذاهبة في النوم

لئلا أشعر بالوخزة فأتألم، ثم تنسل منه إلى مجرى دمي.

فيذهب بك في جولة باذخة في الأنحاء، ولكن لا تقرب قلبي أرجوك، تأمّله من الخارج فحسب.

تأمّل الخدوش.

حدّق مليًا في الوجوه الموشومة، والأسماء المنقوشة على جُدرانه.

أناس مروا من هنا يا "عزيزي"، بعضهم قضى، وبعضهم مضى، وبعضهم باقٍ على عهده ما يزال.

ستجد أنصالًا مغروزةً متكسّرة، دعها مكانها، عامدةً تركتها لأبقى على ذِكرٍ من غدر أصحابها، فلا يشتاق لهم قلبي ولا يصغى، فإن ذهبت تنزعها؛ قفزت مكانها عيون من حنين.

لكل نصلٍ واسم، وخدش ورسم؛ قصة رُبّما أحكيها لك يومًا.

أمّا حرم قلبي فلن تلِجه، ليس بعد حتى ندخل الكهف معًا، كلٌّ لا يفرّقنا الغياب ثانية.

ما زال الوقت مبكرًا، ما زِلتُ أحتاج إلى الاطمئنان إليك بالقدر الكافي قبل هذا إجراء كبير ومهم.

فالقلوب أوطان يا عزيزي.

وأنا امرأة مستبدة، كما ملوك الشرق، غاشمة الحب، باطشة الغيرة،

فالأماكن سجون بالنسبة لي كما ترى.

وليس كل الناس على درجة واحدة من الولاء، منهم مَن يهب روحه لوطنه دون تلكؤ ولا عثرة، منهم مَن يتنكّر له إن وجد وطنًا أفضل، ومنهم مَن يعيش بوهيميًا، غجريًا، لا يعترف بأمّة ولا حب، لا يعنيه إلا أرض يتوسّدها وسماء يلتحفها والسلام.

فماذا عنك يا أنت يا عزيزي؟ أيُهم أنت؟

خبّرني واصدقني القول.. فإنّي أراك وطني وسمائي.

أراك غدًا.

سيلين.

لم أنَم تلك الليلة، أقرأ في خطها كل رسمة فيها، أتخيّل إحساسها وتفكيرها لحظة الكتابة، قرأته عشرات المرات سارحًا في ملكوت يديها حتى جاء يومي الثاني معها.

كنتُ أمسك بيد سيلين ولا أخفيكم سرًا أنني كنتُ أشعر بنبض قلبها في خلايا جسدي ونحت أناملي يتشابك مع نحت أناملها، في احتكاك الروح للروح عجبٌ لا تشعر به كلمات على ورق مقروء.

هذا كله قبل أن تغار الطبيعة مما فعلت أيدينا، رياح لا تُبقي ولا تذَر، وتطغى على نور القمر، ولا يقوى عليها جسد بشر.

اختفت سيلين الأمازيغية بفعل دوامات الطبيعة تطوّحت في الهواء، نبي أنا في شعوري، إذ كنتُ على بساط سليمان تحملني

الرياح فوق مملكة بلقيس.

هذا حُلمي القديم، دومًا أرى في منامي أنني أطير فوق الأرض والبشر يتلاشون في سحرٍ مدهش.

لو أقسمت لكم أنني رأيت الملائكة بجناحين من نورٍ يتراقصون أمامي لقُلتم أنني ممسوس.

لكن لا يُؤاخذني الله باللغو في قسمي، وإنّما أحلف أنّ ابنة الريح هي مَن كانت تطير معي في غيوم من القطن.

إنها سيلين، فرّقتنا الطبيعة وجمّعتنا الرياح فوق طبقاتها العنيدة مثل وجه طفلتي.

ملأت يدها من جديد فتشابكنا، طيارة من ورق وبوص، صنعها طفل يحرّكها من فوق سطح بيته، لكن هذه المرة خيوط الإله تحرّكنا من فوق سبع سموات.

يا لِخفّتنا معًا وخيوط الماريونت تحافظ على اتزان جسدينا باختلاف أوزانهم.

تهدأ الرياح بانسيابية روح تخرج من جسد الطبيعة، لترمي بثِقَل أجسادنا على أرضٍ هامدة.

لكن لم نشعر بقوة الارتطام، فلا يزال أثر دوامات الرياح في عظام جماجمنا، لا، لم تكُن الرياح، بل كان ما أنساني الألم خوفي على فُقدان سيلين، وربّما كان نفس خوفها عليّ، إذ كانت تنظر إلى

أعماقي.

لكنني احتضنتها في نفس الزمن التي قبضت -هي- على جسدي وما فيه معًا.

- ماء.

نطقتها بلغتها الطفولية، ولم أفهم إلا عندما شعرت بماءٍ يتدفّق إلى نصفي السفلي.

يا الله! نحن عرايا، جرّدتنا الرياح من ملابسنا، لحظات ميلادنا الأولى ونحن نتبوّل في وجه طبيب التوليد، هذا ما حكته لنا أمهاتنا في المهد الأول.

لم تكُن تلك الغرابة الأخيرة، بل كشفت الرياح مدينة التاريخ، عرّت الرمال كهفًا جعل سيلين تنسى جسدها العاري وتصرخ بالأمازيغية.

- هنا الكنز، الطريق إلى ديهيا.

جرّت حوّاء وآدم مثلنا في اليوم الأول لهم حين هبطا من السماء، لجأنا إلى الكهف غير عابئين بتقلّبات الطبيعة لو دفنتنا في قلب التاريخ.

الصقيع يسحقنا، ولا حتى ابنة الريح تقوى عليه، كيف كان الزواج الأول؟

لا مأذون ولا شهود إلا رب السموات، احتمينا في أجسادنا، غاصت غريزتي في سيلين، وتأوّهت أنفاسنا تُنعش الحياة فينا، اختلط

مائي بمائها، فوران مشتعل لا يقدر عليه أحد، ما أحلى الحب حين يسرقنا رغمًا عنا!

لا حدود إلا أجساد تزدهر في نار الحب، خميرة من قرنفل وعجينة في لهيب العشق أنّت.

تزوّجتها من الطبيعة، وهي قبلت، وبدأنا نكتشف الكهف، وفي الممر ظلام كقطيع جاموس أسود كثير يُنيره لبن حبي لسيلين.

ورقة شجر زلّما سقطت من أحدهم في زمن بعيد، تحسّسته بيدي، هذا شجر نادر.

صنعت منه خاتمًا على شكل فراشة لسيلين، ألبسته لها وهي تبتسم في سحر جوهرة تتلألأ في أعماق جزيرة الكنز المفقود بواحة سيوه.

كان الفجر حليبي اللون مثل قلبها الأمازيغي الساحر، والرياح تُلاعب الرمال في علاقة جسدية سادية العشق.

حفيدة الكاهنة "ديهيا" تحفظ الرمال وتقلّباتها مثلما تشعر الأم بتغيّرات ابنتها، لم يكُن لي عاصم هذا اليوم إلا بسيلين رفيقتي إلى الكنز المخبوء في كهوف الجبل بمدينة "تيديس"، صحراء المدينة الخادعة التي لا يعرف سكانها -حتى عصرنا- متاهاتها الغامضة، لكن عيون سيلين لا تخطئها.

قامت عاصفة قلبت الأرض من تحت قلبي، الذي غاص في باطنها

ولم أتبيّن له نقطة دم من وعورة الرهبة.

- كل يوم هي في شأن.

هكذا همست لي من بين ترانيم سحابة حُبلَى بماء المطر.

- سنموت يا سيلين؟!

لم تُجبني سوى بابتسامة تحمل موت صغير في ثغرها البربري كأجدادها الطوارق، رُبّما هي جميلة مثل جدها الأول طارق بن زياد قائد معركة "قمبيز" التي كانت طريقة لفتح الأندلس، لكن موتها الصغير بعث الحياة في تجويف صدري الفارغ فاتحًا قلاع جسدي لها، حين حفرت بآلة صغيرة معها - في جبلٍ غير مأمون المشاعر- عمق يتسع لنا.

تذكر انك حملت فيدياس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

فالبرد كان كفيلًا بتجميد الحجارة نفسها في غرائبية "تيديس"، إذ إنّك لو لمستها لالتصقت يدك بها من شدة نُتف الثلج، رطوبة تسحق العظم وتنهش اللحم بسهولة سكينة في قطعة جاتوه باريسي التكوين.

دفنّا أجسادنا في حفرة سيلين حتى رقبتنا، وغطّينا وجهينا بلثام

أمازيغي النقوش.

مصنوع من صوف إبل عتيدة يرجع تاريخها إلى الملك "يوبا" الثاني الأمازيغي، الذي تزوّج "سيليني كليوباترا" ابنة كليوباترا حاكمة الفراعنة.

جسدي ينتعش في جلد سيلين الناعم حتى صارت "يوبا" الثاني الأمازيغي، الذي تزوّج "سيليني كليوباترا" ابنة كليوباترا حاكمة الفراعنة.

جسدي ينتعش في جلد سيلين الناعم حتى صارت أنفاسنا تحت تاريخ لثامها، تمارسه شفاهنا في قُبلات ترجع إلى ما قبل التاريخ بسبعين خريفًا زلّما.

حتى إنّ عصير لسانها في فمي وجدت فيه "الكسكس"، الوجبة الرسمية لبني هلال، والتي تعود للأسرة الثانية عشرة.

ماذا فعلت بي السيلين الزرقاء -سيلين- من أجل كنز أمازيغي مدفون.. صرتُ أبحث عنها، داخلها أشياء لا تُقدّر بثمنٍ ناهيك عن لغتها الباعثة على النشوة والشكر معًا.. تسحرني ابنة الرياح تلك.

حقًّا هي حفيدة إله المطر "أزرار" وأنا معها في أرض الأحلام، أبحث عن جنةٍ مفقودةٍ في سحر الحجارة، لكن المدهش حقًّا كان عندما دخلنا أول كهف في المتاهة!

أصبحت أمسك بآثار أقدامها الجميلة هي الأميرة وأنا ظلها، لكن سيلين لم تتوقّف عن إعطائي دهشات مختلفة كل غمرة من

الساعات الرملية.

ما فعلته عند بداية الكهف جعل الخوف يسكنني بلا تكلّف.

- أنتِ أقوى من السحر!

- متى كان السحر أقوى من الساحر أيها الإنسي؟

- إنسي! أأنتِ جنية يا سيلين؟!

- أنا أمازيغية يا عزيزي، حفيدة الملكة كنداكة.

- كنداكة.. يا إلهي! إنّها الوحيدة التي تغلّبت على دهاء الإسكندر.

في تلك اللحظة بدا الكهف يتكشّف لنا برائحته العبقة والدبقة في آنٍ واحد.

سنكتشفه لاحقًا، أمّا الآن فعلينا أن نطير إلى "عمارة الأشرفي" فما زالت كل التفاصيل لم تُكشَف بعد، بعضها ما زال كامنًا في البحر، وصندوقي الذي خبّأته بعيدًا عن أعين البصّاصين.

* * * * *

11

لا يحسن بمَن غلب الرجال أن تغلبه امرأة.

- الإسكندر الأكبر.

لما استولى الإسكندر الأكبر على مصر بعث رسالةً إلى كنداكة ملكة بلاد كوش يقول فيها:

(لقد علمنا أنكم حكمتم مصر قبل مجيئنا إليها، وأنكملما خرجتم منها استوليتم على كنوز الذهب والزبرجد وغيرهما من المعادن النفيسة التي توجد في أقصى جنوب مصر، وبما أنّ مصر صارت الآن من أملاكنا، فإني أطالبكم بإعادة كل ما استوليتم عليه من تلك الكنوز).

كانت الملكة الكوشية "كنداكة" سيدةً واسعة العلم معروفة بالحكمة والعدل وحُسن التصرف، ولما جاءتها رسالة الإسكندر جمعت الملأ من قومها للشورى في الأمر على عادتها وعادة ملوك كوش القديم قبلها، فاستوثقت من تصميمهم على الحفاظ على أرض المعدن التي لا يشكون قط أنها من الأملاك القديمة في أرض كوش، وأنهم لن يتهاونوا في مواجهة الإسكندر إن حدّثته نفسه بالتقدم بجنوده إليها، ثم طرحت عليهم رأيها فوافقوها على أن ترسل إليه ردًا مهذبًا وقاطعًا ترفض ما ادّعاه وترد طلبه.

فكتبت إلى الإسكندر رسالةً تقول فيها:

-(إنّ كنوز الذهب والزبرجد وسائر المعادن النفيسة ليست هي في أقصى جنوب مصر كما حسبته، لكنّها في أقصى شمال بلاد كوش أنها أملاك تابعة لمملكتي، ولا يسعني التنازل عنها وتسليمها لك).

وقامت بدهاء الكنداكة أن بعثت إلى الإسكندر مع تلك الرسالة بهدايا ثمينة من خيرات البلاد ونفائس المعادن.. ودمّت بين سفرائها إليه رجلًا موهوبًا في فن الرسم، وطلبت منه أن يرسم لها صورةً للأسكندر مطابقةً لصفته على ألّا يطلع على تلك الصورة أحد كائنًا مَن كان.

حتى يأتي بها إليها ويسلّمها إليها هي شخصيًا يدًا بيد، ثم لما وصل سفراء كنداكة إلى بلاط الإسكندر وأطلعوه على ردها، وسلّموه هدايا الكنداكة.. فقام الإسكندر برد الهدية، وأظهر الغضب الشديد لرفضها طلبه بتسليم أرض المعدن والذهب التي طلبها.

وظنّ أنّ الفرصة قد حانت ليبدأها بالحرب، فيستولي على ما أراد وفوق ما أراد، فكتب رسالةً شديدة اللهجة يقول فيها:

- (أنا الإسكندر الأكبر، ملك الدنيا من مشرقها إلى مغربها، فاتح بلاد فارس، وقاتل مَلكها العظيم (دارا) وفاتح بلاد الهند، وقاتل ملكها المحنّك القوي (فور)، واعلمي أنّه لا يحول بيني وبين ما أريد أحد من الخَلق مهما كانت قوته، ولا تقوم بحربي امرأة مثلك أو تمتنع على بلادٍ كبلادك، فأذنوا إن لم تسلموا إلى تلك الكنوز بحربٍ لا تجنون منها إلا الذلة والصغار).

ثم انطلق مع سفراء كنداكة سفراء الإسكندر حاملين إليها ردها العنيد، الناطق بالتهديد والوعيد، وكان رجلها الموهوب في الرسم قد أعدّ في تلك الأثناء صورةً تُطابق صفة الإسكندر التي رآها وتدبّرها جيدًا حين وقف أمامه، وطوى الرجل الصورة وأخفاها حتى على زملائه في الوفد، فلمّا عادوا إليها سلّمها يدًا بيد فدسّتها في خزانتها الخاصة.

ثم اطلعت على رد الإسكندر، فلّما رأته لا يريد إلا الحرب كتبت إليه تقول:

- (لسنا كما تظن، نحن أعظم من (دارا) على ما وصفت من عظمته وأكبر قوةً وحِنكةً من (فور) ملك الهند على ما رأيت من قوته وحنكته، ولا تحسب أنّي حين بعثت إليك بتلك الهدية كنتُ خائفةً من سطوتك أو طامعةً فيما عندك، لكني رأيت أنّ الرفق أوفق الحالين، وأنّ السّلم أحسن عاقبة، فإن أبيتَ إلّا الحرب فهلُمّ إلينا، فإنّك لن تجد منّا إلا بأسًا شديدًا، ولن تجني من حربنا إلا الخسارة عليك).

ثم خرجت كنداكة بكامل جنودها في أثر السفراء الحاملين ردها الأخير حتى ضربت معسكرها في الأطراف الشمالية لبلادها؛ تأهُّبًا لملاقاة الإسكندر وجيشه، إن حدّثته نفسه بغزوها.

وتتفق في تلك الأثناء أنّ ابنها الأصغر خرج مع زوجه في معسكره في رحلة الصيد يرفّه بها عن نفسه، فداهمه جماعة من قطاع

الطرق وأخذوه على غُرّة، فاستولوا على جميع ما معه وأخذوا زوجته ونساء حاشيته سَبايا.

أمّا الأمير نفسه فجلبوه ليُباع في أسواق الرقيق بمصر، تعرّف بعض جُند الإسكندر على الأمير الصغير ابن كنداكة المعروض للبيع في سوق النخاسة، فأخذوه وجاؤوا به إلى القصر الذي كان ينزل فيه الإسكندر مع أكابر قُوّاده.

وحين وصولهم بالأمير إلى القصر كان الإسكندر نائمًا، فأطلعوا نائبه وكبير قُوّاده بطليموس به، واستجوبه واستيقن أنه ابن كنداكة حقيقة.

وتأكّد من صدق روايته بأنّ قُطّاع الطريق أخذوه على حين غُرّة وجلبوه إلى مصر، أبقى بطليموس الأمير عنده حتى إذا استيقظ الإسكندر قام ودخل عليه وقال:

-(إنّ ابن كنداكة ملكة كوش -التي تريد حربها يا مولاي- قد وقع أسيرًا في قبضتنا).

وقصّ عليه الخبر بتمامه، وعند ذلك صرف الإسكندر كل مَن كان في حضرته، وأغلق على نفسه باب غرفته، وأخذ يفكر بقية يومه ذاك وكل ليلِهِ كيف يستفيد من هذا الأمير في مواجهة أمه الملكة؟ فلمّا كان من الغد دعا الإسكندر بطليموس وأمره أن يتنكّر في ثيابه هو، وأن يضع التاج على رأسه، ثم أجلسه على العرش مكانه، أمّا الإسكندر تنكّر في زي بطليموس، ووقف خلف العرش مع سائر

القادة كأنّه واحد منهم.

ثم أمر بإدخال الأمير المأسور، دخل الأمير فهاله أن يرى القائد الذي استجوبه بالأمس جالسًا على العرش، فخرّ راكعًا بالتحية ثم رفع رأسه مخاطبًا بطليموس المتنكّر في زي الإسكندر.

وقال: اعذرني يا مولاي، فقد ظننتُ أمس أنّك بطليموس القائد، ولو كنت أعلم أنك الملك لضاعفت من إكبارك وقابلتك بما يليق من التحية والتجلّي.

فقال بطليموس المتنكّر في زي الإسكندر مخاطبًا الأمير الصغير:

- (لا عليك، ولعلّك من حُسن الصُدف أن تقابلني البارحةفي زي القادة، فلا تعرفني حتى تنبسط في الحديث إليّ من دون خشية، أمّا وقد عرفت قصتك كاملةً وتحقّقت من صدق ما أخبرتني به من أمرك، فلعلّه يُسعدك أن تطّلع على ما قد قرّرته بشأنك نحن معشر الملوك على اختلاف بلادنا وأحوالنا، ينبغي أن نتعامل في رعاية المكانة والحق والحصانة، كما لو كنا أسرةً واحدةً عليه، وإن كنا على حافة الحرب أن أعيدك إلى وطنك سالمًا مكرمًا، ولا ينبغي مَن هو في مثل مقامي أن يرى أميرًا مثلك مسلوبًا من اللصوص والمارقين مهما كانت الحال، فرأيت ألّا أعيدك إلى ديارك إلا بعد أن آخُذ لك حقك من قُطّاع الطريق، وأن أرد إليك زوجتك وسائر ما أخذوه منك).

عقب هذا الكلام التفت بطليموس المتنكّر في زي الإسكندر إلى

القُوّاد الواقفين حول العرش، وقال: أريد أن أنتدب أحدكم للاضطلاع بمهمة رد هذا الأمير إلى بلده في سلام بعد ما يأخذ له كامل حقه من قُطّاع الطريق، إنّها لمهمة دقيقة وعسيرة فمَن لها؟

عند ذلك قال الإسكندر المتنكر في زي بطليموس القائد:

- (أنا لها يا مولاي، إن أردت أن تبعثني وتأذن لي بأن أختار بنفسي ألف فارس مغوار أقتحم بهم الصحراء في مواجهة الخوارج قُطّاع الطريق، فأسترد للأمير حقه ثم أقوم معهم على حراسته حتى نعيده إلى أرضه سالمًا)

فقال بطليموس المتنكر في زي الملك:

- (لك ذلك أيُها الفارس، فاختَر جنودك بنفسك).

انتخب الإسكندر المتنكر في زي بطليموس ألفًا من أكفأجنوده الإغريق وبني أمره على أن يدخل بهم أرض كوش؛ ليُقابل الكنداكة مع ابنها، ثم يستولي عليها من الداخل، فسار في ملاحقة الخوارج أولًا.

وما كاد يصلهم حتى هربوا أجمعين من وجهه تاركينوراءهم كل ما أخذوه من الأمير، بعد ذلك توجّه الإسكندر المتنكّر في زي القائد بطليموس في صُحبة فرسانه مع الأمير وحاشيته حتى دخل بهم مدينة الكنداكة؛ حيثُ كانت تضرب معسكرها استعدادًا لحربه.

وكان الأمير قد بعث بالبشارة بخلاصه إلى أمه؛ فخرجت وخرج أمراؤها وأكابر دولتها وسائر قومها لملاقاة الأمير فرِحةً بقدومه

سالمًا، وضُربت الطبول، وأقبلت الأم على ولدها تُعانقه، وأقبل الأمراء إليه يُهنّؤونه بالسلامة والإسكندر قائم بينهم متنكّرًا لا يحشون به ولا يخافون منه بأسًا.

فخاطبهم الأمير قائلًا: (لا تشغلكم الفرحة بقدومي سالمًا عن مقابلة هذا البطل الإغريقي بما يستحقُّه من الكرامة، فإنّه ندَب نفسه دون قُوّاد ذاك الملك لمناصرتي، واستردّ لي حقي وعاد بي سالمًا إليكم).

فاقبلت كنداكة على الإسكندر المتنكّر شاكرةً حامدةً له حُسن صنيعه، ووعدته بالمكافأة، وأقبل عليه أمراؤها شاكرين مقدّرين بطولته وشهامته.

ثم أمرت كنداكة بإنزاله هو وجنوده في منازل الضيافة كلٌّ حسب مقامه، وأن يُبالغ في إكرامهم.

في صبيحة اليوم التالي ظهرت كنداكة في أفخر ثيابها واضعةً التاج على رأسها، فجلست على عرشها ومن حولها أمراؤها وأكابر دولتها وسائر حاشيتها، ثم دعَت بالقائد الإغريقي لتقابله مقابلةً رسميةً تشكر له فيها حُسن صنيعه، ولتبعث رسالةً معه إلى سيده تشكره على رد ابنها إليها سالمًا، وإن كانا متخاصمين، وما كان الإسكندر الأكبر المتنكر في زي بطليموس يرى كنداكة في تلك الزينة الملكية حتى راعه جلالها ووقارها، وتذكّر بها أمه الملكة (هيلين) فلم يتمالك أن بكى، وكاد يفضح أمر نفسه لولا أن تنبّه

على صوت كنداكة تسأله: (ما بك أيها القائد، ما يُبكيك)؟

فقال: دموع فرحة يا مولاتي، إنّها لسعادة ما بعدها سعادة، أن أقف هنا تكرمني مَن هي في مثل جلالك، وأمتّع طرفي بالنظر إلى وجهك الكريم، واطلع من حُسن طلعتك وهيبة وقارك ما لو رآه الإسكندر نفسه لاغتبط به أشد الغِبطة.

فسُرت بذلك الجواب منه سرورًا بالغًا، ثم أمرت الملأ من قومها أن ينصرفوا أجمعين، وأمرت بأبواب القاعة أن تُغلَق حتى إذا لم يبقَ أحد يراهما أو يسمعهما بادرته قائلة:

(أيُها الإسكندر الأكبر! أنا الكنداكة)!

فقال: (مولاتي، لستُ الإسكندر، إنّما أنا عبد من عبيده وقائد من جملة قُوّاده).

فجعلت كنداكة تضحك ملء شدقيها، فقال في أدبٍ شديد: (هل تُطلعني مولاتي على سر ضحكتها)؟

فأجابته كنداكة: (أيُها الإسكندر، هل تظنُّ أنّك خدعتنيمنذُ اليوم)؟ وأخرجت له الصورة التي كان قد رسمها لها فنانها قائلة: (لقد عرفتك متنكرًا لأول لحظة رأيتك فيها) فأسقط في يديه ولم يدرِ ماذا يقول، وأحسّ مرارة الإخفاق حين علِم أنّه استدرج بحيلته.

فتابعت كنداكة كلامها قائلة:

- (ما رأيك الآن؟ أنت الإسكندر الأكبر مالك الدنيا من مشرقها إلى

مغربها فاتح بلاد فارس، وقاتل ملكها العظيم (دارا) وفاتح بلاد الهند، وقاتل ملكها المحنّك القوي (فور) قد صِرتَ في قبضتي أنا، قبضة امرأة! وأعجب ما في الأمر أنّك سعيت إلى أُسرك بقدميك، وأخذت بذكائك، لقد كنت أتابع تدابيرك وأدرس مكيدتك في كل حربٍ خُضتها، فرأيتك تركن إلى لُطف الحيلة وإحكام المكيدة في كسب النصر وتب الظفر بعدوك بالدهاء، قبل المخاطرة بدفهذ الجُند في ميدان القتال، ولكَم تمنّيت متعة نِزالك في ميادين التخطيط وسياسة الحرب، أنا التي زيّنت لولدي الخروج إلى الصيد، وأنا التي أوعزت إلى رجال البوادي ليأخذوه على غُرّةٍ ويجلبوه إلى مصر تحسّبًا لمثل هذا الموقف، ومن قبل بعثت المصور وأمرته بإعداد صورتك التي لم يطّلع عليها أحد سواي).

قعد الإسكندر حين قامت كنداكة تُلقي على مسامعه ذلك الكلام يضرب جبهته بقبضته، ويعضُّ على شفته في غيظٍ شديد، فقالت له كنداكة: ما كل هذا الغيظ والأسف؟

فقال لها: (إنّما الآن أأسف على شيءٍ واحد).

قالت: ما هو؟ قال: إنّ سيفي ليس معي الساعة، فقالت: ما كنت تصنع به؟

فقال: أقتلك به أولًا ثم أقتل نفسي.

قالت: وماذا تفيد من إزهاق نفسي ونفسك؟ هذه أيضًا ذلة محسوبة عليك، أمّا أنا فبمقدوري الآن أن أصفّق بيدي فيدخل

رجالي وفي أيديهم السيوف القواطع، ثم هي كلمة مني وأنت في عداد الموتى، لكن لن أفعل بك هذا، لقد أحسنتَ بي إذ رددتَ إليّ ولدي سالمًا.

فقال لها: كفى تهكُّمًا، تعلمين الآن ومن قبل أنّي ما جئتُ إليكِ بولدكِ إلا مكيدةً أرمي بها إلى قهركِ.

فتجيبه كنداكة: (إني لا أتهكم، أنت قائد كبير وملك عظيم، سأرسلك حرًا لتعود إلى مملكتك مع فرسانك المغاوير، ولن أفشي سرك للرعية، أجل.. سأعطيك الحرية والأمان بشرط واحد).

الإسكندر قائلًا: (أنت الرأس المتوّج الوحيد الذي غلبني في الدهاء، فما شرطك)؟

كنداكة: (أن تكتب بيننا عهدًا تقرُّ فيه بسيادتنا على كامل أرض المعدن "النوبة").

ردّ الإسكندر قائلًا: (إني قد قبلت).

وأنا قبلت شروطكِ يا سيلين مثل جدتكِ "الكنداكة" الوحيدة التي غلبت دهاء الإسكندر العظيم.

*****

12

في النهاية، عندما ينتهي الأمر، كل ما يهمّ هو ما فعلته.

- الإسكندر الأكبر

عدتُ بعد معركتي القلبية مع سيلين إلى الإسكندرية، صعدت شقتي بالطابق الثالث بعمارة الأشرفي، لا يزال السرداب من يومها تحت الحراسة.

الساعة الثالثة صباحًا، كياني بين النوم والدهشة، إذ سمعت صوت طرقات غريبة على الباب، اقتربت من صوت هذه الأصابع التي تعطي رنة فيها إشعار بوصول شيء مُثير.

فتحت الباب فإذا بالممر المؤدي إلى باب شقتي فارغًا ولا حتى صوت أقدام تنزل على درجات السلالم حتى المصعد لم يكُن قد اشتغل، ما زال معلّقًا على الطابق الثالث منذُ آخر مرة استخدمته، إذ لا يوجد بطابقي سوى شقتي، أمّا الأخرى المقابلة لي فمغلقة منذُ سنوات لامرأة يونانية هجرتها قبل سنوات.

تقدّمت لأستكشف الممر بنوره الخافت؛ فتعثّر قدمي بشيء غريب.

كان صندوقًا خشبيًا قديمًا.

حملته في رهبةٍ وريبةٍ ناظرًا حولي في كل اتجاه، فلم أتبيّن طيفًا لشبح.

وضعته أمامي على مكتبي، حاولت فتحه إذ كان بقفلٍ مكوّن من ثلاثة أرقام.

قلّبته يمينًا ويسارًا؛ علّني أهتدي إلى فك شفرته، فإذا حروف يونانية وثلاثة أرقام بالفعل كانوا 356 إذا هو تاريخ ميلاد الإسكندر الأكبر قبل الميلاد.

ضبطت القفل على شكل هذه الأرقام من اليسار لليمين،فسمعت على الفور صوت ترس صغير دار للفتح.

لافتح هذا الصندوق الغريب الذي رماه لي شبحًا، ربّما من العالم الآخر.

كانت خريطةً غريبةً مرسومةً من بداية عمارة الأشرفي، التي أسكن بها لمكانٍ ما لم أتبيّنه.

ومكتوبًا عليها: الحكاية لم تبدأ بعد، هذا ما أردته أستعد، فالحقيقة أخفيتها، أنا مَن سرقت مقبرة الإسكندر الأكبر.

لم أصدّق تلك العبارة التي أربكتني لدرجة أنّني أشعلت سيجارًا كوبيا كنت قد هجرته من بعيد.

كان داخل الصندوق عملةً عليها وجه للإسكندر من عصر بعيد، من أين عثر عليها ابن الساحرة هذا؟!

لكن الذي يخلع الروح هو ذلك المظروف الأصفر المدسوس به مجموعة من الصور.

شاهدت الصورة الأولى.. كانت لي، وأنا أمام عمارتي منذُ ساعتين.

الصورة الثانية وأنا أفتح باب شقتي.

الصورة الثالثة جعلتني أدور كالمجنون في جميع زوايا شقتي، إذ كانت لي وأنا أجلس على مكتبي!

لكن ما جعلني يغشى عليّ من الارتباك حد الجنون هو الصورة الأخيرة لي، فقد التقطها وأنا أحمل هذا الصندوق اللعين أمام باب شقتي.

يا إلهي! ليس بشريًا بالطبع مَن يقوى على فعل هذه الأشياء.

كيف التقطها لي وجهًا لوجه وأنا أبحث عنه؟ لا، بل الأدهى كيف وضعها داخل الصندوق في غمضة عين وأنا الذي بحثت عن أرقامه السرية؟

يا ربي! عقلي يطير مني مع دخان سيجارتي.

قلّبت الصورة الأخيرة؛ علّني أعثر عن نهاية هذا العبث، كانت جملةً غريبة:

- إذا أردت أن تعرف حقيقة مَن أنا، فاتبع الخريطة!

إحساسي يُنبئني أنّ فيدياس وراء هذه الأفعال.

استلقيت على السرير أفكر فيما يحدث لي، لدرجة شعوري أني مِتُّ ساعةً واحدة، انخلعت روحي من جسدي حرفيًا، انكشفت مسافة من حجاب العالم الآخر حتى عدتُ من الموت بأعجوبة من غموض

رحمة القدير.

الساعة السادسة صباحًا جاءني ملك النوم، الذي سمّيته"ميم"، وبالمناسبة لا يعرف اسمه غيري وواحدة وحيدة.

المهم ميم يرقص كبهلوان خفي على جفوني؛ تركته يعبث بعويناتي كما يحلو له، لكن رقصته هذه المرة كانت بمقدار خِفّة ساحرٍ عجيب رُبّما كان يرقص تانجو.

ضحكت في سري منه، وداخلي شعور أنّ هذه المرة ليست مثل غيرها، كأنّه أراد أن يرسل لي رسالة وداعٍ أخيرة على إيقاع التانجو المدهش.

بالفعل دخلت في حالة من الهذيان، حالة لم يسبق لي أن انتابتني منذُ ولادتي.

قوة خفية تمسك بجسدي كله، أقدامي تسمّرت ويداي ملتصقتان بالأرض لا تقدر عشيرة من الجن على تحريكها، كلي المادي توقّف، رُبّما أحدهم يقول لي بلهفةٍ ومذاجة إنه "الجاثوم".

لا يا عزيزي، جرّبته مرات وأنا يقظ ومرات قبل النوم، لكن ما حدث بعد ذلك أكبر من تلك الفكرة.

انسحبت روحي لمكان بعيد، صحراء بها كهف غريب، وشجرة حلوة، ورجل عجيب اعتقدت أنّه يُشبه الخِضر عليه السلام.

لا تندهش، جسدي فقط هو الذي أصابه الشلل، لكن شعوري بخفة

روحي وإيمان قلبي يرددان الأفكار التي كنت أعيش معها في الدنيا من دون صوت ولا نطق، كالكلمات هي لغة الروح التي نبوح بها في أعماق من فراغ الكون.

حقًا وعجبًا فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

تقدمت للرجل، وإذا به جالس على قمة جبلية ليست عاليةً كأنّني أعرفه وعقل روحي يُقسِم أنّه لم يرَه، ولو لمحة في الدنيا التي أتيت منها.

مشيت إليه بلهفة طفلٍ فقَدَ يد أمه في الطريق؛ تكلّمت إليه:

- هو انا كل ما أشوفك الدنيا تمطر؟

ردّ بعينين لامعتين وأحكم قبضة يدي الواهية التي هي بالأصل مشلولة.

وما إن لامست يده يدي انقسم المكان إلى عالمينوانهمرت السماء بالمطر؛ شتاء جميل تركت يده وألقيت بنفسي تحت المطر؛ هل هذا المكان هو آخر الدنيا، وما أنا فيه الآن عالم إلهي جديد؟! لست أدري.

المطر رفعني إلى أعلى، أقسِم لكم بالرحمن الرحيم أنّي طِرت كفراشة إلى مكانٍ يُوصلني للسماء، وكلما ارتفعت كان المنحنى أصعب؛ قانون الجاذبية انقلب، أصبحت القُوى الخفية تشدّني للأعلى، تحرّرت من جسدي تمامًا، كياني يشعر بأنّني الآن على

موعدٍ مع إلهي الذي أطمع في رحمته التي وسعت كل شيء.

ربّما هذه تُشبه المرة الأولى التي تُراودني حين أفكر فيها، وأنا في قرار أمي المكين، سؤالي الدائم: لماذا الملائكة تُغمض عويناتنا قبل الولادة؛ حتى لا نتذكّر شيئًا من الغيب؟!

على كل حالٍ ليس هو موضوعي الآن.

إذ بالمغناطيسية العجيبة تزداد لروحي، وأقسِم أنّ الوحيد الذي كان معي هو قلبي كأنني قلب فيه روح وباقي الجسد تلاشي، إلّا مَن أتى الله بقلبٍ سليم.

تذكر انك حملت رواية فيدياس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

قلبي يقول: يا إلهي، رحمتك تشدُّني إلى الأعلى، ودعوات أمي وسيلين تحاوطني مع خوفي عليهما من فُقداني.

لا أعلم مقدار المسافة التي قطعتها وأنا في قلب السماء، إذ بدأت مرحلة أخرى، عين قلبي ترى جسدي مجردًا.

سمعت مرةً عن أناسٍ دخلوا في غيبوبة أثناء العملية، وحين استيقظوا حكَوا مباشرةً للطبيب ما فعله بجسدهم، والذين كانوا يبكون خارج الغرفة وتفاصيل أخرى مدهشة، وعندما سُئِلوا: كيف عرفتم؟ أجابوا أنهم كانوا يشاهدون كل شيء من مكانٍ عالٍ دون

جسد.

الله يشدُني إلى أعلى، هُنا استسلمت له بكياني كله، حتى جاءت قُبّة نجمية عجيبة فيها نور عظيم لا عيني ولا روح قلبي رأته من قبل، ولا خطر على كياني أبدًا!

دفعتني القُبّة النجمية النورانية مرة أخرى كأنّ هناك نفخةً ملائكيةً قلبت ميزان الجاذبية مرة أخرى إلى الأرض، واختلّ كياني غير المفهوم عائدًا إلى الأرض، وكلما نزلت أكثر شعرت بشلل جسدي بطريقة مؤلمة.

رأيت غرفتي من أعلى نقطة وأنا نازل إليها على ظهر جسدي؛ فأدركت أنّها النهاية حرفيًا، ظلّ قلبي يُنادي في الفراغ: يارب.. أمي.. سيلين.

اقتربت من سقف غرفتي وجسدي يُؤلمني بعُنف، انتظرت ملك الموت حرفيًا، أتمنى لو أصرخ أن أموت على صدر أمي، ولكن كلامي يخرج في الفراغ ولا يسمعني أحد، كأنني أخاطب صُمًا وبُكمًا وعُميًا، كأنك تشاهد عرضًا مسرحيًا يصرخ فيه البطل، وفي أذنيك قطنة تحجب الصوت!

حتى شعرت بصوتٍ يجتاح فراغ كياني بصدى صوتٍ يحضن روحي: الله يحبك!

عيوني تنفتح ببطء ليس كما أستيقظ في الطبيعي، الحقيقة أنّ عيوناني ترى كل تفاصيل غرفتي، ولكن شلل جسدي لا يزال

يؤلمني، أدركت أنّه لا محالة من مَلك الموت، انتظرته يدخل عليّ من باب الغرفة.

نفخة أخرى من تلك القُبّة النجمية النورانية دخلت من الباب، هنا انبعثت داخلي الحياة من جديد.

قفزت من سريري كالممسوس أتحسّس جسدي المشلول، حتى أسناني، لأول مرة أشعر بها كأنني وُلِدت على كِبَر.

أحتاج إلى البحر ليُرمِّم لي ما تبقى من هذا الشعور العالق داخلي.

في النهاية روحي يتيمة مثل فراشتي، وحيدة مثل ظِل غزالٍ تائهٍ في الصحراء، سراب هي الحياة يا قلبي.

حقًّا وعجبًا ستحلو فيك الحياة لوهلة، سنُقاتل من أجل لحظةٍ من أجل كلمة أخيرة من أحدهم يرقص لها قلبك، وأوان الوردة يفوت، وحبي اختار أن يمشي على أجنحة الفراشة هونًا منذُ اللحظة الأولى، وألّا يزيد أثرنا على مقدار رفتها وعُمر زهرتي.

الذي بقي هو روح الفراشة تلوح في الصباح التالي لميلاد سيلين معي، لم تتخلّ عني أو عنها، بل رُبّما الاثنين معًا.

أثر الفراشة لا يرى أثر جناحيها، لا يزول.. لا يموت!

* * * * *

13

أفضّل أن أعيش حياة مجدٍ قصيرة على حياة طويلة من الغموض.

- الإسكندر الأكبر

أنحشس الصندوق أتلمّسه بقوة، ماذا تريد مني؟!

نزلت إلى البحر لأدرك حقيقتي معه، قرّرت أن أمشي وراء الخريطة لفك تلك اللعنة، وليكن ما يكون.

الدنيا فيها شيء غريب، إسكندرية كلها معلّق عليها صور لفيدياس، مَن يعثر عليه له مكافاة مالية كبيرة الثمن!

أنت مرة أخرى أيها الوغد.

أيّ فعلةٍ فعلها هذا الممسوس تلك المرة،

تذكّرت أمر الصندوق، إذا التفاصيل تحتاج إلى ترتيب.

سأعثر عليك يا فيدياس ليس من أجل المكافأة لكن من أجل معرفة السر.

البداية..

* * * * *